الطاهر بن جلون



الحبُّ الأول
الحبُّ الأخير

ترجمة: روز مخلو



الحب الأول... الحب الأخير

* الطاهر بن جلون
* الحب الأول... الحب الأخير
* ترجمة روز مخلوف

* الطبعة الأولى 1997
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053 ص. ب. 9436
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 9436
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

الطاهر بن جلون

الحب الأول... الحب الأخير

قصص

ترجمة روز مخلوف

عنوان الكتاب الأصلي:

Le premier amour
est toujours
le derier

1

الحب المجنون

هذه قصة خيالية. تخيلتُها في يومٍ كنت فيه على شرفة الميراج، أسفل مغارات هرقل في طنجة. كان صديقي أ. قد أعارني شقةً كي أستريح قليلاً أو إن احتجتُ، كي أكتب. خلال بضعة أشهرٍ، وأمام الامتداد الشاسع لشاطئٍ تصطدم به أمواج الأطلسي، أُشيدَ قصرٌ في هذه الصحراء من الرمل والزبد، لاأدري لمن تعود ملكيته. يقول البعض إنه مكان استجمام أميرٍ بعيد يعشق بحر هذه المنطقة وصمتها. وينسبه آخرون لمستثمر سفينةٍ يوناني، ماعاد يطيق البحر المتوسط، فاختار هذا المكان كي ينهي أيامه، ويهرب من وجه العدالة في بلده بشكلٍ خاص.

البحر هنا أزرق، البحر أخضر. جمّتهُ بيضاء. يقوم حمّام الأمير أو المستثمرِ مقابله، وقد أخذ لون الرمال. هو ليس بشعاً. إنه غير لائق، مثل قصةٍ اختلقْتُها مساء أحد الأيام وأنا أستمع لمغنيةٍ في المذياع.

نسبتها الشائعات لمغنية أو راقصة وجدت بالفعل. لم أسعَ للتحقق من الأمر. الناس يعبدون سماع الحكايات وقصّها على الآخرين. وهذه قصة من بين القصص.

عسى ألا يتشبه أحد بإحدى الشخصيات. كل تخيلٍ هو سرقة

للواقع، ويحدث أن يعود إليه ويختلط به. تحدثت صحيفة من الشرق الأوسط مؤخراً عن اختفاء ممثلة مصرية. ولمّحت مجلة أخرى إلى أن الممثلة المذكورة ربما تكون قد اختلقت كل شيء لكي تصبح موضوعاً للكلام.

حدثت هذه القصة منذ بضع سنين، في الزمن الذي فتح فيه البلد أبوابه بسخاء لزوّارٍ من طراز خاص، رجال قادمين من أعماق صحراء السعودية في سبيل بضع ليالٍ من الفسق. ليالٍ بيضاء، تغلف أبخرة الكحول فيها، النظراتِ شبه الزجاجية لرجالٍ اعتادوا مداعبةَ بطونهم البارزة أو تمسيد لحاهم المبعثرة على وجوهٍ اسمرّت من الضجر. لم يكونوا يحبون الجلوس، بل كانوا يَدَعون أجسامهم تـلْتـفّ على نفسها بين مخدات كبيرة مغطاة بالساتان. كانوا يحتقرون الأرائك الجلدية؛ يضع بعضهم قفاه على حافتها ثم ينزلق ليجد نفسه فوق السجادة المصنوعة من الصوف السميك. كانوا يتصرفون على سجيتهم، يأمرون دون كلام، بمجرد القيام بإشاراتٍ بوساطة اليد أو العيون. كان الخدم يعرفون معنى كل إشارة. لم يكن الأمر معقداً: الإبهام المرفوع باتجاه الفم، لطلب الشراب. اليد المفتوحة التي تقوم بحركةِ كَنْسٍ مقتضبة في الفضاء، هي طلبٌ إلى الموسيقيين بالبدء؛ ونفس الحركة إنما بالاتجاه المعاكس، لإيقاف الموسيقى؛ الإصبع الممدودة باتجاه الكواليس لإدخال الراقصات؛ والعين باتجاه باب خفي للمطالبة بالمغنية، إلخ.

عندما يتكلمون، كانوا يتهامسون فيما بينهم بأشياء غير قابلة للفهم، ويستخدمون لهجة خاصة ببعض قبائل البدو. لم يكن يفترض بالخدم ولا بالموسيقيين أن يفهموا. كانت لديهم رموزهم الخاصة بهم. لكن الجميع كانوا يلمسون العجرفة، الاحتقار والرغبة المجانية بالإذلال وراء كلامهم. كان الخدم ينفذون مهمتهم بصمت. فهم يدركون أنهم يتعاملون مع أناس من نوع خاص. وبالنسبة لهم كان هذا عمل مثل غيره من الأعمال، باستثناء كون متطلبات هؤلاء البدو

الذين أَثْروا بسرعة، غير محتملة. فالكؤوس يجب أن تكون مملوءة طوال الوقت، وقطع الثلج يجب أن تكون مستديرة وليست مربعة، وبعضهم يريدها على شكل قلب. الزيتون، منزوع النوى، يجب إحضاره من أسبانيا في علب معدنية. الجبن يجب استيراده من فرنسا أو، وهذا أفضل، من هولندا. لم يكونوا يحبون الخبز التقليدي، بل يفضلون الخبز اللبناني. يعرف الخدم هذه النزوات ويحترمونها.

هل كانوا يحبون الموسيقا، أم جسم الراقصات فقط؟ هل كان صوت سكينة هو أكثر مايفضلون فيها؟ كانت سكينة مغنية كبيرة. من أسرة متواضعة، ونادراً ماتظهر في هذا النوع من السهرات. كان والدها، المدّرس المتقاعد، يرافقها دوماً. فهو أحد أعضاء الأوركسترا ويعزف على الفلوت. كانت وَصْلاتُهُ الإفرادية تستثير صرخات الحنين لدى هؤلاء الرجال المستغرقين في المخدات وهم يشربون الويسكي كما لو أنه عصير ليمون، فيصيحون: «الله!» و «آه ياليلي! آه ياحياتي!». وبمجرد ظهور سكينة، كانوا يضعون كؤوسهم ويرسلون القبلات نفخاً على راحات أيديهم.

كانت سكينة طويلة القامة، في عينيها حَوَلٌ طفيف، يزيد من جاذبيتها. شعرها الطويل الأسود يصل حتى أسفل ظهرها؛ وكانت تلعب به قليلاً حين تتمايل مجاريةً انسيابات صوتها. القفطانات التي ترتديها، كانت ناعمةً تبرز صدرها. كانت محتشمة لاتظهر شيئاً من جسمها ولا تنظر إلى جمهورها أبداً. وعندما تغني، يكاد المرء يقول إنها تنطلق نحو عالم آخر، بعينيها المرفوعتين نحو السماء وذراعيها الممدودتين نحو المجهول. هذه الوقفة كانت تغري بشدةٍ الرجال الذين يدفعون الكثير كي يسمعوها. كان صوتها يُذكّر بصوت أسمهان و أم كلثوم. فهي تملك طبقات الصوتين معاً. وهذا مايجعل منها مغنية استثنائية. كانت تعتبر ذلك هبة من الله. وكمؤمنة، كانت تمارس صلواتها اليومية. لاتشرب الكحول ولا تكاد تتزين. كان

البعض يسميها لالاّ سكينة، كما لو أنها قديسة. كان معجبوها يقدرون لديها ذلك التحفظ، ذلك الحياء الذي يميزها عن أية مغنية عربية أخرى. وكانت الصحافة تحترمها فلم تشكل قط مادة للحديث في منشوراتها. عرف الناس معلومات قليلة عن حياتها الخاصة. عرفوا عنها أنها غير متزوجة وترفض الحديث عن أسرتها أو عن مشاريعها مثلما يفعل عادةً نجوم الأغنية أو نجوم الشاشة.

سكينة الجميلة والرائقة، كانت تزجر كل من يحاول إغواءها، رادةً على مقدماتِهم بأناقة وحزم.

ذلك المساء، كانت تلبس الأبيض والأزرق. تتزين بقليل من الحلي، ومثل أم كلثوم، تمسك بيدها اليمنى منديلاً أبيض. لم تكن قد غنت سوى أغنية واحدة هي *ألف ليلة وليلة*. وأعادت اللازمة نفسها عدة مرات، مع تلوين في الصوت والإيقاع، في حين كان البدو، الذين أدرَكَهم السكر، يصيحون طالبين منها إعادة المقطع الأخير. فتفعل ذلك بسهولة وظرف. كانت الأغنية تتحدث عن كؤوس فارغة وكؤوس مليئة، عن الثمل، عن الكواكب النازلة على الأرض، وعن الليالي الطويلة المنسوجة من الأحلام، فتسمح للخيال أن يهيم إلى مالانهاية.

كانت حركات سكينة نادرة ومعتدلة. جسدها يتحرك قليلاً. إلا أن كل شيء يكمن في صوتها. كل الإثارة التي أُبقيت في الخيال، أَفْقَدَت البدو القدرة على تمالك أنفسهم. بعضهم كان يصيح كما لو أنه منْتَشٍ. كان هناك شيء ما بذيء وفي الوقت نفسه مثير. وتُظهِرُ سكينة، كالعادة، لامبالاة صريحة. فهي تعرف أمام من تغني.

دامت الأغنية أكثر من ساعة. تعبت سكينة. وبعد أن حيت الحضور، انسحبت إلى مقصورتها حيث وافاها والدها. كانت تزيل المكياج عن وجهها عندما طُرق الباب. فتحت. قدم لها أحد الخدم باقة ورد كبيرة محاطة بالسيلوفان. بالكاد لمحت وجه الرجل الذي

قال لها «من قبل الشيخ». أوقفت سكينة الخادم وسألته بلهجة المسارّة:

ـ من هو؟ أي منهم؟

ـ الأبشع والأكثر ثراء... القصير ذو الكرش، وذو اللحية الصغيرة، يبدو أنه أمير. يقال إنه أميّ لكنه كريم... لاتتسلي بإظهار الكبرياء. إنه شرير وقادر. الوداع لالاّ سكينة!

بعد لحظات عاد الخادم نفسه.

ـ يطلب منك أن توافيه إلى الصالون. لاتخشي شيئاً. إنه ليس بمفرده. أظن أنه يريد فقط أن يعبر لك عن ثنائه. كوني عاقلة! انتبهي، إنهم بشر قادرون على كل شيء. لاشيء يوقفهم. أموال النفط تمنحهم كل الحقوق.

أثناء توجهها إلى الصالون، صادفت والدها، الذي كان يبدو عليه التعب والغيظ. قال لها:

ـ فكري. أنا أثق بك. يالها من مهنة! ما الذي يجب ألاّ يفعله المرء حتى يعيش في هذا الزمن الصعب!

كانت سكينة ترتدي ثوباً أسود متواضعاً، وعقداً صغيراً بجواهر مزيفة. تقدمت وشرعت بِشبْهِ انحناءةٍ، تحيةً للشيخ، المحاط بحاشيته وأصدقائه. في إحدى يديه كأس كبيرة من الويسكي وفي الأخرى مسبحة. دون أن يتحرك أشار لسكينة بالاقتراب وقال لها:

ـ أنت تغنين بشكل جيد يابنتي. صوتك يصيبني بالقشعريرة. أحتاج لسماعه مِراراً، وأحتاج خصوصاً لرؤيتك تغنين.

ـ شكراً أيها السيد! إنك تطريني. إن سمحت لي، سأنسحب.

ـ لا! لم أسمح لك. (ثم انفجر ضاحكاً). مالديَّ من كلام لأقوله لك، هام جداً. لاتستعجلي. أمامنا الليل بطوله لنتحدث عنه. اشربي كأساً، عصير برتقال أو كوكا.

- لا شكراً. علي أن أعود. والدي ينتظرني.

- والدك ذهب. بضع أوراق نقدية كانت كافية لكي يذهب. في النهاية، أنت لن تفسدي سهرة الشيخ! تعالي بقربي. أرغب أن أهمس في أذنك الصغيرة بما عندي من كلام لك.

دفعتها يدٌ بهدوء إلى أن وقعت قرب الشيخ الذي أمسك بيدها، شدها نحوه، وهمس في أذنها مداعباً خصرها:

- ستكونين زوجتي. يابنتي الصغيرة...

نهضت وصرخت:

- ألا تخجل، أيها الخنزير العجوز؟ أتظن أن كل شيء يُشترى. الأجساد، المهن، الكرامات... ولكنك فظيع! إن لك عيناً كالزجاج وكرشاً مليئاً بالخطايا. اعتدتم المجيء إلى هذا البلد لاغتصاب أعراض العذارى، والعودة إلى صحرائكم ورؤوسكم مليئة بالموسيقا والصراخ. هنا تريدون استهلاك كل شيء تحت ستار من الشرعية، تريدون أن تحملوا ضمن أمتعتكم، لحماً طازجاً. أقول لك لا، وأنا أحتقرك. أبصق عليك وعلى ثروتك العفنة!

بصقت بالفعل ومضت. حاول رجلان، ربما من الحراس الشخصيين، استبقاءها بالقوة. لكنها قاومت. أشار الشيخ، بارد الأعصاب، بحركةٍ من سبابته أن يَدَعوها تذهب. خَرَّ رجال من حوله ساجدين كي يعتذروا نيابةً عن السفيهة. انفجر الشيخ ضاحكاً وأشار أن يُملأ كأسه. هُرعت ثلاث نساء شابات مكتنزات وأحطن به. ثلاث راقصات يرتدين القليل من اللباس. مرّ بيديه على صدورهن العارمة. بدا الشيخ سعيداً، كما لو أنه نسي الحادث، حتى وإن لم يسبق أن اعترضه رفضٌ مماثلٌ قط. لابد أنه كان يتألم في دخيلة نفسه، فهو لم يعتد أن يهان، لا سراً ولا علناً. لو حدث هذا في بلده، لـقُطِعَ لسانُ الوقحة. أما هنا، فرغم كل خطابات الترحيب لم يكن يشعر أنه في بيته. أمضى الليلة مع الراقصات الثلاث، اللواتي كنّ في

أعماقهن يحتقرنه ولا يفكرن إلا بالنقود التي قد يستطعن سحبها منه. وهو يعلم ذلك ويطلب منهن أن يُدلِّكنَهُ بباطن أقدامهن. فيقمن، بالتناوب، بالسير فوقه، وهو يطلق تأوهات الاستمتاع. غفا. ولم تكن النساء الثلاث يعرفن إلى من يتوجهن كي يُدفع لهن. جاء رجل يطردهن، موجهاً إليهن الإهانات. خِفن ومضين، متمنياتٍ له آلاماً طويلةً رهيبة، وموتاً قريباً.

في اليوم التالي، غادر الشيخ وأتباعه البلاد، على متن طائرته الجيت الخاصة. لم ينبس بكلمة واحدة طوال الرحلة. كان أفراد حاشيته يشعرون بالقلق. طلب خارطة للعالم. بحث عن البلد الذي غادره للتو. أخذ قلم تخطيط أحمر وشطب بإشارة ضرب فوق البلد. نظر الرجال إلى بعضهم. لقد حُذف البلد وملذاته من الخارطة ماعاد يجب لفظ اسمه داخل قصره أو طبخ طعامه أو سماع موسيقاه. إنه حكمٌ بالاختفاء تلك كانت إرادته وحكمه. لم يجرؤ أحد قط أن يهين هذا الرجل، القادر جداً والسخي جداً. وسوف لن يُعلم السلطات بالحادث، لأن هذا قد يعني أنه ربما يسعى للمصالحة. في حين لايمكن لأي اعتذارٍ أن يمحو الأذى الذي سببته له المغنية.

قررت سكينة، معتدةً بنفسها، ألاّ تعود للغناء في بيوت خاصة. روت لوالدها ماحدث في قصر الشيخ وتلقت كلمات قاسية جداً بحقها. كان الأب منزعجاً جداً، وغمغم بعذرٍ من نوع «لم أكن أعرف... كان علي أن أبقى معك...»

مضى الوقت ونسي الناس حادث القصر. سافرت سكينة إلى لندن كي تسجل أسطوانة من أفضل أغنياتها. في المرة الأولى، رافقها والدها وأبدى يقظة شديدة. في المرة الثانية، كانت أمها هي التي سافرت معها. دامت جلسات التسجيل حوالى شهر. استفادت منها لكي تزور لندن وتلتقي بمواطنين من بلدها، طلبةً أو عمالاً. نظمت قنصلية بلدها حفلاً على شرفها. جاء موسيقيون عرب وانكليز لتحيتها. دعتها ال BBC إلى برنامج غنت فيه دون فرقة موسيقية.

كان الناس يكتشفون قوة وجمال صوتها. كتبت الصحافة أشياء جميلة عنها. كانت سكينة سعيدة ينقصها فقط رجل تحبه، ولم تتأخر المصادفة في تقديمه لها.

كان يدعى فواز. جميل، أنيق، فتي، مثقف وشديد الرزانة. فرّ ذووه من الحرب الأهلية في لبنان واستقروا في لندن، حيث استأنفوا أعمالهم. كان فواز يكبر سكينة بأربع سنين. في البداية أحبَّ صوتها حباً جنونياً، ثم أحب وجهها. رآها للمرة الأولى في حفل القنصلية. راقبها طوال السهرة، وقبل الانصراف طلب من صديقه القنصل العام أن يقدمها له. كان فيه شيء من الجنتلمان الانكليزي: قبّل يدها، وشرع بانحناءة احترام، تحيةً لوالدتها. قال كلماتٍ في منتهى اللطافة متحدثاً عن جمالٍ صوتها. هكذا كان فواز، شخصاً حسن التربية، ظريفاً، وذا أناقة فائقة في الخلق والمظهر. كان يتكلم عدة لغات. يفضل الموسيقا الكلاسيكية والأدب على الفيديو وتعاطي المشروب. ورغم كونه رجلاً شديد الانشغال، فقد رجا سكينة أن ترافقه في افتتاح معرضٍ لفنانين انطباعيين. أدركت سكينة أنه يعرف شخصيات كثيرة. كان الناس يحيونه باحترام. وبعضهم ينتحي به ليحادثه في الأعمال. كان يعتذر منها طوال الوقت، وهي مفتونة لاكتشاف مانيه، رونوار... وسعيدة لوجودها في صحبةٍ جيدة إلى هذا الحد. بعد بضعة أيام سأل والدة سكينة إن كان بوسعه السماح لنفسه بدعوة ابنتها للعشاء. كانت سكينة مشغولة، لكنها اقترحت عليه الخروج معه في نهاية الأسبوع، عندما تنهي تسجيلها. وأثناء ذلك، وضع تحت تصرفها سيارة مع سائق انكليزي، في حال أحبت القيام بجولة سياحية، أو الذهاب إلى المخازن الكبرى. كان كل شيء على أتمّ مايرام، ربما أكثر مما يجب. من النادر الالتقاء بشخص مرموق، خدوم، ولبق إلى هذا الحد. في أمسية العشاء، أظهر فواز نفاد صبر ومزاجاً غريباً. سألته سكينة إن كان هناك مايضايقه. أجاب أنه حزين لأنه شعر بقرب نهاية زيارتها. وبالفعل، لم يبق لدى سكينة ماتفعله في لندن وكانت تستعد للعودة إلى بلدها.

أمسك فواز يديها وقرّبهما إلى شفتيه. قال لها: «أنا حزين لأنك يجب أن تذهبي. وقد كان من جنوني أني اعتدت على وجهك، على ابتسامتك وعلى حضورك الرائق، الجميل، واللطيف إلى هذا الحد. أفكر بك. أغمض عيني فأراك أكثر جمالاً. أراك أكثر قرباً، غير أنك صعبة المنال، كما هو حالك دوماً. صوتك يحملني إلى الطفولة. إلى تلك البراءة التي ماتزال حاضرة في نظرتك. أكلمك وأنا أغض الطرف، لأني أحس بالضيق. لدي رغبة شديدة أن أقول لك الأشياء النقية التي في قلبي، المشاعر العميقة التي تعيدني إلى الحياة، لكن صمتك يخيفني. هل أزعجتك؟ اعذري لي هذه الاستفاضة التي كانت أقوى مني. أنا رجل وحيد، أعمل كثيراً وليس لدي سوى حلم واحد، أن ألتقي بامرأة يكون لها عيناك، صوتك، جمالك، وأيضاً طيبتك. أحلم وأسلمك طوباويتي. أعرفك سيدة فاضلة، متزنة ومرموقة جداً، وفنانة استثنائية. سأكون سعيداً إن لاقت مشاعري صدىً ولو صغيراً لديك. أنا لا أطلب منك شيئاً. فقط أن تصدقي عواطفي، أن تلاحظيها، وتجعلي لها مكاناً صغيراً في قلبك، في حياتك. لا تجيبي في الحال. أمنيتي أن يكون أمام كلماتي الوقت كي تشق طريقها، بمجرد أن رأيتك، عرفت أن حياتي سوف تنقلب. كان علي أن أظل قصياً. أن أنظر إلى مكان آخر وأستغرق في أعمالي وأرقامي، في العقود، وفي أشياء تبعدني قدر الإمكان عن الحب. لكني استسلمت. أهي غلطتي؟ خيّل لي أني رأيت في عينيك تواطؤاً، صغيراً جداً. بلدي دُمّر ولم يعد لدي رغبة بالعودة إليه. وأبحث عن وطنٍ بالتبني. انجلترا بلد مفضل للعمل؛ بلدك جميل. إنه بالنسبة لي لبنان ناقصاً الغم، إنه لبنان مضافاً إليه الكرم. بلدك يمكن أن يصير بلدي إذا كانت مشاعرك إزائي تسمح لي بذلك. مصيري بين يديك. لاتقولي شيئاً، ليس في الحال. دعيني أكمل لأن نواياي جادة، عمري ثمانية وعشرون عاماً، وضعي ممتاز، وأود أن أنشىء أسرة. ألا يقول دينُنا بأن الرجل لايكون رجلاً إلا عندما يؤسس أسرة؟ عليّ احترام الأخلاق والفضيلة. أنا مسلم صالح أؤمن بالله وبرسوله. لستُ

مثابراً على ممارسة الشعائر، لكن قلبي مسلم. يحدث أن أكذب، بالطبع، كذبات صغيرة، ضرورية لحسن سير الأعمال. إنها القاعدة. لأنك لن تحققي شيئاً إذا قلتِ الحقيقة دوماً. أحب الأطفال، وهذا ليس عيباً. أحب الرياضة، مغرم بكرة القدم، ولا يجب إزعاجي عندما أشاهد إحدى المباريات. عيبي الآخر من حجم معتبر، وإن قَبِلْتِه، لن يعود هناك حاجز يترتب اجتيازه: لدي جنونُ حبِك. لقد فكرت جيداً، حسَبْتُ كلماتي ووزنتها جيداً. أنا واقع في غرامك وأشعر، في أعماق نفسي، أنه حبٌ مدى الحياة، إلى الأبد. لا أطلب منك أن تصدقيني في الحال. أدَعُك تذهبين إلى بلدك. وعندما تكونين قد فكرتِ، وتأملت كثيراً، أشيري إلي وسآتي. كل شيء يتعلق بك، في الوقت الحاضر. أنا رجل بسيط وأميل إلى التكتم. لِنَقُم باختبار الغياب. إذا كان هذا الغياب قاسياً جداً، فلنحطمه ولنر بعضنا. الزمن وحده يمكنه أن يكون شاهداً على مشاعري. الآن أرجوك أن تعذريني. تكلمت بمفردي. أحس بالتخفف قليلاً. سأنام جيداً هذه الليلة، فمنذ ثلاثين ليلة، وأنا أنام نوماً سيئاً. كنت أفكر بك. وكانت الرغبة برؤيتك، تَقْوى إلى درجة يمتنع معها كل نوم. هذا هو اعترافي. إنه رومانسي، لكنه حقيقي. أعدك أنني طيلة الغياب لن أستمع إلى أية أغنية من أغانيك، حتى لايتأثر سير مشاعري. وسأنتظر. لقد بدأت منذ الآن بالانتظار. أنتظر كلمةً، جملةً، رسالة، حتى وإن كانت قصيرة، ولكن لا تَدَعيني دون أخبار...»

وضع قبلة خفيفة على يديها ونهض لكي يوصلها. كانت سكينة متأثرة. ودَّت لو تبكي، لكنها تمالكت نفسها. لم يسبق لها أبداً أن سمعت بوحاً بمثل هذا الجمال. وتساءلت إن كان الرجال العرب قادرين فعلاً أن يكونوا بمثل هذا اللطف. كانت تعتقد أن هذا ليس موجوداً إلا في الروايات المصورة أو الأفلام الميلودرامية. عندما وصل فواز إلى فندقه، نزل من السيارة وقبل يدها وهو يسألها إن كان بوسعه السماح لنفسه أن يأتي في اليوم التالي لاصطحابها إلى المطار. قالت له إن شركة الاسطوانات تكفلت بهذه المهمة، وإنها

لاتحب الوداع في محطة أو مطار. أعطاها بطاقته مضيفاً إليها رقم هاتفه الشخصي وعنوانه. «بهذا الرقم يمكنك الاتصال بي في أي مكان وأي وقت!».

لم تنم الليل. كانت تستعيد جُملاً كاملةً قالها فواز بصوته الرقيق. و يتبدى لها ثانيةً، وجهه المتأثر. لقد غُلبت، ووَدّت لو أنها بين ذراعيه، ورأسها فوق كتفه، كما في فيلم حب. كانت تتمنى أن تمشي معه، ممسكة بيده، في شوارع لندن تحت الرذاذ وفي الضباب. كانت تحب هذه الصور الرومانسية المكرورة وتحتفظ بها لِلَحظات وحدتها. هل كانت ترغب بذلك الرجل؟ كانت تحلم بجذعه العاري، بعضلاته، بأصابعه في شعرها، وتترك خيالها يعرّي حبيبها. لكنها لم تكن تجرؤ أن تتخيل نفسها وهي تمارس الحب معه. مرّت بأصابعها على نهديها. كانا قاسيين ومنتفخين من الرغبة. نهضت، استحمت ورتبت حقائبها. مرت بها لحظةٌ، رغبت فيها أن تطلب رقمه الشخصي والسري، ثم أمسكت.

عندما وصلت سكينة إلى حيث تقيم، وجدت باقة أزهار رائعة ومعها هذه الكلمات فقط: *ورود، لكي أتمنى لك عودة طيبة إلى الوطن. ف.*

كانت سكينة تعيش حياة هادئة وبسيطة، تقيم مع ذويها في شقة صغيرة بمركز المدينة الذي يطغى عليه اضطراب صاخب ليل نهار. واعتادت أن تنام مغلقةً أذنيها بسدادات شمعية، مفضّلةً القراءة على سماع الموسيقى. كانت تحب روايات غي دو كار مثل غالبية بنات جيلها. (كانت تجد فيها شكلاً جميلاً للحياة، رتبته الرواية، وحرصت ألا تـفـوِّت آخر مايصدر لهذا الكاتب، معترفةً في الوقت نفسه، بأن ذلك لم يكن ينتمي للأدب العظيم). كثيراً ماحاول والدها أن يجعلها تقرأ روايات كلاسيكية، لكنه لم يفلح. كانت تعيش ضمن فقاعة وترافقها أحلام فتاة صغيرة رومانسية، وفي ذات الوقت تكره ترف وإسراف أمراء الخليج وبذخهم الصارخ، منذ

بدؤوا يرتادون البلد، بعد أن صارت بيروت، التي خربتها الحرب، عاجزة عن استقبالهم. وكانت، كمسلمة صالحة، تجد هؤلاء «الناس»، مُفسَدين بالمال والرذيلة ومحاباة أولئك الذين يستفيدون من سخاءاتهم. كان والدها هو من أصر أن تمثل أمام الأمير. لقد أكدوا له أن كل شيء سيسير بشكل سليم. أما الآن فقد أصبحت هذه القصة منسية، ولاح أمل جديد بالنسبة للمغنية الصغيرة ذات الصوت الذهبي، الجديرة بخلافة أم كلثوم. كان هذا، على كل حال، رأي السيد أكرمي، أستاذها في الغناء، والعضو القديم في أوركسترا أم كلثوم. وقد اقترح أن يدربها. كان أكرمي العجوز، رجلاً قصيراً ضامراً وأنيقاً. يضع نظارات وطربوشاً أحمر. كان يجعلها تضحك وهو يقص عليها طُرفاً مصرية. نصحها أيضاً ألا تغني في بيوت الأمراء مستشهداً لها بالمثل المغربي: « ماذا يعرف الحمار عن الزنجبيل؟». كان النفور من هؤلاء الناس القادمين من الخليج، شبه عام. وعندما يدور الحديث عنهم، كان يخلد إلى الصمت فقط أولئك الذين تربطهم بهم أعمال، أو المستفيدون من لحظات غوايتهم. لم يكونوا يمتدحونهم، بل يتوارون كيلا يضطرون إلى انتقادهم أو الدفاع عنهم.

كانت غرفة سكينة مغطاة بصور أفضل مغنييها ومغنياتها: أم كلثوم بالطبع، محمد عبد الوهاب، الذي استطاعت أن تلتقي به بفضل السيد أكرمي. فيروز، أسمهان الجميلة، أسمهان الأسمى، صاحبة النظرة الصافية والملغزة التي ماتت شابة في حادث سير. عبد الحليم حافظ، في إحدى صوره الأخيرة وقد أصابه المرض بالهزال، إديث بياف، ماريا كالاس، ثم زوج من المغنين الطليان. وفي صورةٍ بولارويد، علقت بدبوس، بدت فيروز تميل نحوها كما لو أنها تشرح لها شيئاً ما. صورة التقطها شخص باكستاني في الشارع. فوق هذه الصورة، ألصقت بشكل مائل، زهرة مجففة وأمضت لحظة طويلة تحلم. رأت نفسها وقد اختطفها الأمير الجميل الساحر الذي يهمس في أذنها بكلمات الحب. رأت نفسها ضاحكة باكية في آن واحد.

كانت الحياة حلماً والحلم ليس إلا تقليداً للحياة. لم تكن تجد أي ضير في خلط الخيال بالواقع، والاعتقاد بالحب المنقذ. كانت تحرز تقدماً كبيراً في عملها مع السيد أكرمي ويكتسب صوتها مدىً، وتتعلم كيف تمده وتغير طبقته في اللحظة المناسبة. من قبل، كان الأمر يتم بشكل تلقائي. لكنها تعرف الآن مختلف النغمات معرفة أفضل، وتعرف كيف تخضعها جيداً. لقد أصبحت محترفة. صدرت لها الاسطوانة التي سجلتها في لندن، وتلقت عدة رسائل من معجبين. وكانت أكثر هذه الرسائل رقة، وأكثرها ذكاء تحمل توقيع فواز:

صوتك مثل حلم في الحلم، يأخذنا إلى ماوراء شواطئ الهوى والغبطة. لم أستطع المقاومة . أعترف أني استمعت إليك طويلاً. اعذري هذا الضعف. لكن اتفاقنا مستمر، إلى لقاءٍ قريب. ف.

أسرّت لأمها التي قالت لها: «يابنتي، أنت كبيرة؛ لكن الحياة علمتني شيئاً، شيئاً واحداً، إنه الحذر. الرجال غير قادرين على الإخلاص. إنهم جبناء. ولكي يصلوا إلى هدفهم قد يعدونك بالقمر، وحتى بإنزال النجوم لكي يذهلوك، لكي تقعي. وبعدها سرعان مايشبعون فينظرون إلى مكان آخر. كان الأمر مختلفاً مع أبيك، كنا ابنَي عم، موعودَيْن كل منا للآخر حسب التقاليد. تزوجَني. كان يخرج مراراً في المساء مع أصدقائه، وعندما تعب من هذه الحياة الماجنة، عاد إلي يرجوني الصفح عنه. الحب جميل في الكتب، في الصور، في السينما. أما الحب الحقيقي والذي يهمّ، فهو حب الحياة اليومية؛ هذا الحب لا يحكى عنه أبداً، لأن تصويره ليس سهلاً. إذا كان رجلك يحبك بعيداً عن أمسيات العشاء التي تجمعكما منفردين، إذا أظهَرَ في أيام الأسبوع، القدر نفسه من الاهتمام واللطف الذي يظهره في أمسيات المناسبات، عندها يكون ذلك حباً. ولكن كيف السبيل لمعرفة الأمر مسبقاً؟ أنا لا أعرف هذا الرجل اللبناني. ظاهرياً، هو شخص حسن التربية، نواياه جدية. ولكن أين سيكون موطنك؟ هنا؟ في لندن؟ في بيروت؟ فكري جيداً. فكري خصوصاً

بصوتك، فكري بعملك. العرب لا يحبون أن تكون بناتهم أو أخواتهم مغنيات. بالنسبة لهم هذه مهنة غير بعيدة عن البغاء. أأنت واثقة أن فواز لن يمنعك من الاستمرار في الغناء؟ ليس الرجال جبناء فحسب، لكنهم غيورون أيضاً. إنهم لا يحتملون أن تتمكن زوجاتهم من الظهور والنجاح، وأن يكنّ أكثر شهرة منهم. هكذا. ربما يكون هذا الجنتلمان، من كثرة معاشرته للانجليز، قد تخلص من هذا الغل التقليدي العربي؛ ربما أصبح رجلاً متحضراً، يحترم المرأة وحقوقها ورغباتها وأشواقها. إنه سيكون بطلاً عندئذٍ! ربما التقت ابنتي بطلاً... المستقبل سينبؤنا بذلك.»

مضى الوقت وراحت سكينة تعيش في ذكرى الأشياء التي حلمت بها. بعضها جميل جداً ومحاط بالألغاز، وبعضها الآخر عادي. كانت تتعمد الخلط بين الواقعي والخيالي. تقول إنها عاشقة دون أن تتمكن من رؤية نفسها في المستقبل، ومن تصور نفسها عجوزاً إلى جانب فواز. شيء عميق يمنع صورة السعادة والسلام هذه من الظهور. حقدت على نفسها لأنها تفكر بالأمر طوال الوقت وهي بانتظار رسالة أوهاتف من فواز. كانت تتصور الأسوأ. فتراه يكرر الحديث نفسه لنساء أخريات، أو تراه لامبالياً، سوقياً وشريراً، يصعب التعرف عليه. لا. هذا غير ممكن. لماذا تتعمد تشويه صورة؟ لماذا تتعمد تحطيم أمل؟ أهو بدافع الحذر؟ أم لأجل التمرن على الخيبة؟ لقد حذرتها أمها، تحذيراً له علاقة بالمبدأ وليس عن معرفة بالأسباب. كان ذلك نصيحةً، تنبيهاً يصلح في كل مكان وكل وقت. لن تأخذ النساء العربيات، أبداً، مايكفي من الحذر. وقد تعرضن لكمٍّ كبير من العنف والظلم إلى درجة أصبحن معها عديمات الشفقة، قاسيات وخشنات. ليس الجميع. لكن أم سكينة أرادت أن تكون ابنتها قوية، دون أوهام، وحتى قاسية قليلاً. كانت سكينة فنانة تحب الحب مثل مراهقةٍ تبحث عن انعكاس الحياة في روايات أُعدّت للفتيات الطائشات. كانت تفضل العيش في الحلم على العيش في الواقع. يجب القول إن هذا الواقع كان هزيلاً جداً. حياة هزيلة مرقّطة بأحداث

استثنائية، بمناسبات عائليةٍ، أهمّ مافيها أن الحاضرين كانوا يرجونها أن تغني لهم فيها. لقد وعدوا بتزويجها لابن عمها، الشاب المدَّعي الذي يفضل لعب الورق على سماع الموسيقى. حدث بينهما غزلٌ دام صيفاً، ثم لا شيء. لقاءات عابرة، نظرات متبادلة، بضع ابتسامات، مجاملات، ورود، زجاجات عطر، هدايا، وعدد لا بأس به من الليالي دون نوم، كانت ببساطة مغرمة بالحب.

حين عاد أستاذها العجوز في الغناء من لندن، قام بزيارتها. هنّأها على الاسطوانة التي سجلتها. أشار إلى حادث القصر. أكدت له ما وصل إلى علمه وسألته رأيه.

- ياابنتي، معرفتي بهؤلاء الناس قليلة. إنهم يكنّون الاحتقار للكوكب بأسره، احتقارَ من يسود. المال هو دينهم وقوتهم، وهو أيضاً ضعفهم. إن الأمراء الحقيقيين، الأمراء الأصلاء، ليسوا هكذا. وهم من جهة أخرى لا يظهرون علناً أبداً. هؤلاء غالباً مايكونون أمراء منتحلين، أبناء عم مبعدين، موظفين في القصور، يتظاهرون في الخارج أنهم ذوو مقامات رفيعة. بناءً على ذلك أنا أحيي شجاعتك. كان رد فعلك ممتازاً، لقد انتقمت لمئات النساء اللواتي تعرضن لعجرفتهم. لاحظي، بعضهن يحبذ ذلك. لا يجوز الاعتقاد أنهن جميعاً ضحايا. لقد أثارت قصتك ضجة في غيابك، أظن أن الناس تكلموا عنها حتى في لندن. كوني حذرة. انتبهي لنفسك. اشتغلي وتابعي طريقك.

- أكون حذرةً من أي شيء؟ وممن؟

- أقول لك هذا من أجل المستقبل. لا تضعي نفسك أبداً في طريقهم، هذا كل شيء. أنت مغنية نقية الروح وهذا نادر في هذه المهنة.

في لندن كان فواز مشغولاً جداً. قام بعدة سفرات إلى الشرق الأوسط. ازدهرت أعماله، وكان بين غيابين يجد الوقت ليكلم سكينة بالهاتف ويقول لها أشياء رقيقة. كان يمتلك فن الكلام، وهي موهبة

شبه فطريةٍ تُمكّنه من العثور على الكلمات الصحيحة. كانت سكينة تقول لنفسها، كيف لا تستسلم لسحره؟ وأنه لا توجد امرأة تستطيع مقاومته. وكانت في هذه الأثناء تشعر بشيء من الضيق، بخوفٍ من ألا يكون فواز إلا رجلاً يغوي ثم يهجر، أن يكون دونجواناً، هاوي جمع نساء. شعرت برغبة لمعرفة المزيد عنه، عن ماضيه، وعن حياته. ولكن إلى من تتوجه؟ من الذي يستطيع تقديم معلومات جدية عنه؟ أهو القنصل الذي التقت به عنده؟ هي لم تكن تعرفه معرفة كافية كي تتصل به وتطرح عليه أسئلة شخصية. فكرت أن تسافر بصورة مباغتة إلى لندن وتفاجئه في فندقه. كان ذلك مخاطرة. ثم فكرت، بأي حق ستذهب إليه وتحاسبه. اتصلت بفندقه، لا لتكلمه، (فقد كان لديها رقمه المباشر لهذا الغرض)، وإنما لمجرد أن تعرف إن كان قد عاد. حاولت أن ترضي فضولها ثم عدلت. وكما لو أن الأمر تم مصادفة، اتصل فواز في تلك اللحظة كي يدعو نفسه لمدة يومين للتعرف على والديها. مر كل شيء بسرعة شديدة، وبالكاد وجدت الوقت للاستعداد وترتيب شقتها الصغيرة حيث ستستقبله الأسرة. رفضت الأم تزيين الصالون. قالت لابنتها: «ليس لدينا مانخفيه، نحن أناس متواضعون، وأفضّل أن يكشفنا على حقيقتنا. ما فائدة الكذب وإخفاء مانحن عليه؟ إذا كان جاداً، إذا كانت نواياه صادقة، يجب أن يعرف مع من يتعامل. أناس فقراء لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لهم. ليس والدك رجل أعمال، وأغنياتك تعود بالقليل. ولكن، ومع القرصنة في البلاد العربية، فإن حقوقك في أغانيك ستبقى متواضعة دوماً. هوذا. يجب أن يكون الإنسان حقيقياً. انقضت لحظات الحب المجنون، الحلوة، ويجب العودة إلى الحياة اليومية. هذه هي الحياة التي أرغب أن أريه إياها بلطفٍ وحزم.» أراد الأب ارتداء بذته الغامقة متذرعاً بحجة أنه يوم عظيم، لكنه مُنِع من ذلك. كان البيت نظيفاً والثياب مكوية. وكان ثوب سكينة بسيطاً ومحتشماً. لم تُخفِ الأم هيئتها الصارمة. وصل فواز مرتدياً بذة رائعة كحلية اللون. حمل معه هدايا للجميع؛ ناياً للأب، ساعة للأم،

كومبيوتراً صغيراً للأخ، قارئاً ليزرياً للأخت الصغرى. ولسكينة، خاتماً مرصعاً بالألماس. تمنت الأم لو ترفض الهدايا؛ وامتلأت عيناها بالدموع وقد أخذها الحزن. كان الأب متأثراً وراضياً. لم تكن سكينة تعرف إن كان عليها قبول الخاتم أو رفضه. نظرت إلى أمها، التي أشارت إليها بالتزام الصمت. وضعت الخاتم أمامها وأمعنت فيه النظر. سالت من عينيها دموع سعادة، دموع قلق. لم يقل فواز شيئاً هذه المرة. شعر بشيء من الضيق، بتوتر خفيف. اعتذر عن إزعاجهم ونهض كي يذهب. استبقاه الأب، وفي تلك اللحظة تقدم بطلبه بشكل رسمي. أجاب الأب أن القبول أو الرفض أمر يعود لسكينة. أحضرت الأم شاياً وقطع حلوى، وكمسلمين صالحين قرؤوا الفاتحة بيدين مرفوعتين ومتقاربتين. تصافحوا. تحدث فواز عن ذويه بانفعال. أمه توفيت منذ زمن طويل ويعيش والده حياة سيئة منذ وفاة زوجته. وألمح فواز إلى أنه فقدَ رشده. خيمت عليه لحظة حزن. تقرر الاحتفال بالزواج قبل حلول الصيف. سافر فواز لإحضار حاجياته، وانهمكت سكينة في إعداد جهاز عرسها. لم يعد الشك والقلق يجوسان حولها فالحياة جميلة وكل شيء يبسم لها. كانت تعمل بحماس. وتلقت عروضاً من مؤلفين مصريين، وخصص لها التلفزيون سهرة كاملة. كانت سكينة بصدد التحول إلى نجمة في الغناء العربي العظيم.

تم الزواج كما اتُّفق، في الأسبوع الأول من أيار. ودعيت الأسرة وبعض الأصدقاء فقط. كانت حفلة صغيرة دون ضجة كبيرة. في ليلة العرس أُرهق الزوجان لدرجة أنهما لم يمارسا الحب. تبادلا القبل بحنانٍ، وفي اليوم التالي طارا إلى روما وڤينيسيا للاحتفال بشهر عسلهما.

كان العسل مراً. أصبح فواز شديد العصبية وسريع الانفعال. عند وصوله إلى الفندق في روما، طلب غرفة بسريرين منفصلين. قال إنه لايستطيع النوم إلا بمفرده. كان يجري اتصالات هاتفية

كثيرة، ويتكلم عدة لغات. على طاولة العشاء، قام بحركة خرقاء ودلق كأس الكوكا على سترته. غضب وحمّل سكينة المسؤولية. بكت، نهضت وصعدت إلى الغرفة. عندما لحق بها، تظاهرت بالنوم. دخن عدة سجائر، شاهد التلفزيون حتى ساعة متأخرة من الليل. بدأت سكينة تطرح على نفسها تساؤلات حول قدرته الجنسية. لم تفهم لماذا لم يداعبها، أو لماذا لم يمارس الحب معها. اقتربت منه أثناء الليل، وهو نائم، وأخذت تداعبه. حين اقتربت يدها من بطنه، انتفض وقال إن طبيبه منعه من القيام بأية علاقة جنسية طيلة أسبوعين، بسبب فيروس كبدي قابل للانتقال، وهو بصدد معالجته. بحثت في الحمام عن أدوية. لم تجد إلا قارورة باراسيتامول وعلبة خافض حرارة. قال لها إن الدواء لا يباع في الصيدليات وأنه عبارة عن حقناتٍ، كان طبيبه قد حقنه إياها.

قدرت أن الأمر معقول. ولكن إلى متى ستبقى عذراء؟ إنها لم تعرف من الحب المادي سوى شروحات رومانسية. عندما كانت وابن عمها يتغازلان، حدث لها أن أمسكت ذكره بيديها، كما أنها قبلته أيضاً. كان ابن عمها يداعب صدرها، لكنها لم تكن تسمح له أن يلمس فرجها. بل تضم فخذيها رافضةً بقوة أدنى مداعبة. لأنها قرأت أن الفتاة يمكن أن تفقد عذريتها بمجرد إدخال الإصبع الوسطى. الآن أصبحت عذريتها جاهزة للاستعمال، وانفرج فخذاها، وفُتح فرجها. لكن الرجل الذي تحبه ينام نوماً عميقاً، حتى أنه يشخر. خلعت خاتمها وتأملته على ضوء الحمّام. ماذا لو كانت أحجاره مزيفة؟ وماذا لو كان كل شيء مزيفاً؟ لو لم يكن الرجل رجلاً، ولم يكن الزواج سوى صورة ، وشهر العسل سوى حلم كتب بشكل سيء، حلم خطفه زوجٌ غيَّر وجهه؟ كان كل ذلك يدعو للكرب والقلق... القلق الشديد. في ذات اللحظة التي استسلمت فيها لأفكار محزنة، وسالت فيها دموع على وجهها، دون إرادتها، وأحست بنفسها قبيحة وغير مفيدة، مسروقة ومهجورة، أخذها

فواز بين ذراعيه وغمرها بالقبلات. قال لها إن هذا الزواج هو بمثابة تحقق حلم طاغٍ جداً بالنسبة له، وأنه حدثٌ سبّب له تشوشاً كبيراً. بدا الرجل عاطفياً، وقال لها كلمات لطيفة مثل: «عيناك جميلتان إلى حد أنهما تُسقطان الطير من السماء»، «إنّ تَركَهُما تذرفان الدموع، لَهُوَ خطيئة»، «اصبري، الحلم لم يبدأ بعد»... اطمأنت سكينة قليلاً. تعشيا في مطعمٍ مطل على ساحة سان ماركو. تصرَّفَ كعاشق منتبه. لم يكن يفارق جهاز هاتفه المحمول أبداً. في منتصف العشاء رن الجهاز. استعاد فواز هيئته الجدية، نهض وخرج من المطعم ليتكلم. نظرت سكينة حولها. كان هناك عجوزان انكليزيان يتعشيان بهدوء، دون أن يتبادلا كلمة. كانا جذابين. قالت لنفسها: هكذا يشيخ الشريك مع شريكه، لا تعود هناك حاجة للكلام، أو لتفسير كل شيء، نظرة واحدة تكفي. إنهما جميلان. هل أصل يوماً إلى هذه الحالة؟... كان النادل الذي يخدمها عجوزاً جداً، يمشي بصعوبة، يداه ترتجفان، لابد أنه أكبر نادليّ إيطاليا سناً، ربما رئيسهم. أقبل نحوها وقال لها «إنك جميلة ياآنستي!» ثم انصرف إلى مكان آخر. كانت هناك امرأة مسنة تتناول الطعام بمفردها وتقرأ رواية بوليسية. كان المطعم مزيناً بصور أبرز وجوه السينما والغناء والرياضة، الذين كان كل منهم يتخذ في صورته وضعاً إلى جانب صاحب المطعم. وسجل بعض الممثلين، على صورهم إهداءات موجهة له. قالت لنفسها سيأتي يوم توضع فيه صورتها بين صور هؤلاء النجوم. عاد فواز مختلف المزاج،شاحب الوجه:

ـ علي أن أكون غداً في مدينة ديار. الموضوع ملح جداً. مسألةٌ يُخشى أن تنتهي بشكل سيء. عندما كنت في أحد البلدان، ارتكب أحد مساعديّ خطأً. علي أن أذهب لأرى ما الذي يحدث، إنها مسألة عدة ملايين. أنا آسف لأنني أفسدت شهر عسلنا بهذا الشكل. أقترح عليك أن نذهب معاً إلى روما، تزورين المدينة، ثم نلتقي في نهاية

الأسبوع أو تذهبين إلى لندن لزيارة شركة اسطواناتك...

ـ لا. أذهب معك. لن أتركك أبداً بعد الآن. مشاكلك هي مشاكلي. ونجاحاتي ستكون نجاحاتك أيضاً. أحبك ولا أريد أن أتركك وحدك. أنا وأنت لا نعرف إلا القليل عن بعضنا، ولم نجد الوقت حتى كي نضجر معاً او نتشاجر معاً.

ضحك فواز. ضمها بين ذراعيه وقال لها:

ـ أنت امرأة استثنائية. أحتاج لدعمك، أحتاج لأعرف أنك معي، شريكةً ومحبة. إن حبنا لرائع!

في الليل، ناما يضم أحدهما الآخر. شعرت بانتصاب زوجها، لكنها احترمت اضطراره للامتناع عن الجنس.اقترحت عليه ممارسة الحب بارتداء واقٍ. رفض مستشهداً بمثل برازيلي: «ممارسة الحب بالواقي شبيهة بتناول قطعة حلوى بورقتها!» انفجرت ضاحكة وداعبت وجه فواز الذي استسلم للمداعبة.

في مطار ديار، كانت تنتظرهما سيارة ليموزين سوداء بزجاج داكن، قرب سلم الطائرة. كان السائق يشبه صدام حسين: الشارب نفسه، الجسامة نفسها، والمظهر القاسي نفسه. دون كلمة قبض على حقيبة يد فواز وفتح أبواب السيارة. كان الطقس حاراً جداً والسيارة مكيفة. لم يجرِ تبادل كلمة واحدة في هذه السيارة. حاولت سكينة أن تقترب من زوجها وأن تمسك يده. أمرها بنظرة منه أن تبقى مكانها، فلم تتحرك. راحت تنظر إلى المدينة. طرق ذات اتجاهين، أبنية ولا يوجد مارة. بضع عمال يمنيين أو باكستانيين ينقلون أكياس اسمنت، يتقدمون بمشقة. كانت الحرارة تزيد عن 45 درجة في الظل.

دلفت السيارة قصراً. سألت سكينة عن سبب عدم توجههم إلى الفندق أولاً، فأشار إليها ألا تتكلم. أخرج سبحة من جيبه وراح يعالج حباتها بعصبية. فكرت أن المسألة التي هم مقبلون عليها

خطيرة دون شك. في اللحظة التي بدأت تخف فيها سرعة السيارة، شد فواز بقوة على يد زوجته. توقفت السيارة مقابل المدخل الرئيسي للقصر. فتح السائق الباب من جانب سكينة. كان فواز قد نزل وراح ينتظر عند مدخل القصر. لمحت سكينة رجلاً بثياب بيضاء، قصيراً، سميناً، لحيته الصغيرة مبعثرة على وجهه... خيل لها أنها ترى رؤيا. عرفت فيه الأمير، ذاك الذي أهانته، الذي بصقت عليه والذي طلب أن يتزوجها لأنه يحب صوتها وصدرها.

نظر إليها بثبات. كادت تقع مغشياً عليها. عندما اتجهت عيناها نحو زوجها، أشاح هذا بعينيه وقال للأمير:

- سيدي، هاهو الشيء المتفق عليه! المهمة أنجزت!

قاد خَصيّان أسودان سكينة، المغنية الجميلة، إلى سجنٍ مؤبد، ليست جهنم، التي توعَّدَ الله بها شيئاً إزاء ما ستقاسيه فيه. وبالتهديد جعلوها تكتب لأهلها لتقول لهم إنها سعيدة وإنها بسبب حبها لزوجها، توقفت عن الغناء.

2

حِيَل نساء

في أحد الأيام، كانت هناك صديقتان متحابتان، حبَّ الحب، وحب الصداقة. حبٌّ أفلاطوني وصداقة استئثارية. إحداهما شقراء والأخرى سمراء. كانت الأولى تهوى جمع الرجال، أما الأخرى فكانت تنتظر الأمير الجميل. كانتا متفقتين على عدم معاشرة الرجال إلا من أجل استخدامهم وجعلهم يدفعون ثمن نزواتهما، وإذا اقتضى الأمر، جعلهم يتألمون. أصبحتا خبيرتين بالحِيَل، ولم يمنعهما أيُّ تردد أو حيرة من المضي إلى غاية خططهما.

كانت الأولى تمارس الحب، بينما لم تكن الأخرى تسمح إلا بأن تُداعَب. تصل الأولى إلى نشوات بطيئة ومتقطعة، وتتظاهر الثانية بالاستمتاع وتستمر، بمفردها، في مداعبة نفسها متخيلةً أوضاعاً غريبة. مر كل شيء على مايرام إلى أن جاء يوم وقعت فيه الشقراء في فخ الحب. لم تصدق كل ما كان يداهمها من المشاعر، دقات القلب، ارتجاف الصوت وخور القوى حين تكون في حضرة العربي، الرجل الخمسيني، المتزوج، والأب لخمسة أطفال، الذي يعمل في تزوير العملة وتهريب السجائر والكحول وفي إدخال شحنات الحشيش إلى أوروبا. العربي جندي قديم، شرطي سابق، ووجه مألوف في سجون المدينة، لكنه في شؤون الحب، رجل في غاية الحنان. كان كما يقال، يمتلك موهبةً فطريةً، وقاراً وكثيراً من

الحدس. كان يحب النقود وينفقها بالسهولة نفسها التي يكسبها بها. ويبيّضها في بناء العمارات والمساكن التي لا يشغلها أحد. كان يحتفظ بها خالية ولا يتعب رأسه كثيراً بالتفكير بوجودها. لم تشكل النساء أبداً قضيةً قي نظره، بل مجرد فرصة للراحة، للاسترخاء وعدم التفكير بشيء . وكانت هذه الفرصة، مرحلة ضرورية من النهار. كان يحب عبارة: «استراحة المهرب». يَهَبُ المتعة ويحب الحصول عليها. يستمتع خاصةً حين تركع المرأة عند قدميه. مع ذلك، لم يكن هذا المهرب شخصاً فظاً. لكنه لاحظ أن النساء اللواتي تـعـلَّقْن به، كان يروق لهن الاستسلام لهيمنته، ويستمتعن تحت ثقل جسمه. كانت الشقراء تفقد صوابها حين تراه. فتقول له دفعة واحدة إنها مستعدة للقيام بأي شيءٍ، لإسعاده. كانت تتحول إلى شيء طيّع بين يديه، بين فخذيه، تتلوى بين ذراعيه وتبكي من الفرح.

لم يكن رجلاً فظاً، لكنه كان قاسياً في الأعمال. ومن هنا، صارت معاشرة النساء، وكثرة العلاقات معهن، وبعض التوافق الذي يقيمه بينهن بمستوى أهمية إبرام عقدِ تسليمِ شحنةٍ من الحشيش. كان هذا الرجل النحيل والقصير، ذو العين العميقة والنظرة متعذرة الفهم، يسلك أحياناً مسلك عاملٍ على رصيف للسفن، متمرسٍ في الأشغال الشاقة، وأحياناً أخرى، مسلكَ مغنٍ فاتنٍ من نوع سيناترا في أفضل أيامه. كان بالنسبة للنساء رجلاً جذاباً، يجدن فيه ما لا يجدنه في غيره. وكن على استعداد للهلاك في سبيل أن تكون لهن قصة معه. لم تكن سمعته جيدة في مجتمع طنجة التقليدي. يتكلم عنه الناس كسوقيٍّ داعر، يعيش على موت أو إفساد شباب أوروبا. أسوأ مافي الأمر، أنه كان مسلماً جيداً، يصلي في مسجد المدينة الكبير من وقت لآخر، ويوزع الزكاة على المتسولين الذين كانوا يتفقون فيمابينهم ويأتون بأعداد كبيرة لانتظاره. لم يكن سخاؤه مصطنعاً. حتى وهو في السجن، كان يكلف أحد عملائه بالذهاب إلى المسجد لتوزيع الصدقات.

إنه، ربما، الوحيد الذي لم يجد صلة بين تجارته وبين تدهور الشباب الذين يتعاطون المخدر. لم يكن يربك نفسه بالوساوس ولا بالأخلاقيات. وكان يُعنى بالمقابل، بالصورة التي يريد تقديمها للنساء، كما حرص على الحفاظ على لغزه وأسراره. كانت زوجته الأولى قد كبرت في السن. لم يكن ينقصها شيء فاستسلمت. كان زوجها يعمل طوال الوقت وهي ترفض أن تعرف قوام ذلك العمل الذي يستحوذ عليه إلى ذلك الحد.

كانت الشقراء ستفقد صوابها لو لم تتزوجه. فقد كانت بحاجة كي تعرف إن كان مُلْكها، حتى لو لم يكن في حقيقته ملكاً لأحد، ولاحتى لأطفاله الذين يغمرهم بالهدايا، ولكنه قلّما يراهم.

لم يحتفل بالزواج. فقط ذهب إلى مكتبِهِ برفقة رجلَيْ قانونٍ، سجّلا حادث الزواج. سافر بعدها مع زوجته الجديدة إلى سوتا. اختليا طيلة يومين وليلتين ومارسا الحب حتى الغثيان. قبيل نهاية انحباسهما، نهض من السرير مترنحاً، وأجرى اتصالاً متعلقاً بعمله. كان يتكلم لغة مجهولة. ليست فرنسية، ولا أسبانية، بل مزيجاً من الريفية، العربية، والفلمنكية. لم تكن الشقراء تفهم شيئاً منها، لكنها كانت تسخر منها. الشيء الوحيد الذي كان يهمها، هو أن تُفـرِغ هذا الرجل من طاقته حتى يتحول إلى ألعوبة. لم تفلح في ذلك أبداً. أقسمت مرةً، أن تجري عليه عملية مصٍ لا نهائية. كانت فكرتها، هاجسها، أن تستنزفه، وترى منيه يسيل إلى مالا نهاية، ثم تطلب منه أن يمتّعها. لكنه كان غير قابل للتعب، حتى ليقال إنه أدرك لعبة الشقراء، فتركها تلعب، وابتسامة خفيفة ترتسم في زاوية فمه. بعد تلك التجربة الطويلة التي خرجت منها نصف مهزومة، خطَرَ لها أن تقترح على أفضل صديقاتها، السمراء الجميلة، فكرة الشراكة.

حكَت لصديقتها كل شيء، ولم تغفل أي تفصيل من لهـوِها مع المهرب. لاحظت أن السمراء الجميلة كانت تحملق فيها بعين يُقرأ

فيها الحسد. وأثناء واحدة من جلسات البوح المديدة والتفصيلية، أطلعتها على فكرتها:

ـ لم ألتق أبداً، برجلٍ يتمتع بالقدر الذي يتمتع به من قوة الطباع والقدرة الجنسية. أود أن أعرف إن كنتُ مخطئة، إن كنت ببساطة ضحية لتهيؤاتي، أم أن نساء أخريات قد يتوصلن إلى إثبات الحالة، التي توصلتُ إليها، وقد يعانين من الانشداد نفسه شبه المرضي الذي عانيتُ منه. قد أستطيع بقليل من الوقاحة وقلة الحياء، الكلام مع زوجته الأولى. فلا بد أنها احتفظت في داخلها، رغم أنه لم يعد يلمسها، بشيء من تلك الشعلة، بذكرى شيء غير عادي. لكني لن أذهب إليها. سيكون ذلك عملاً شريراً. بالمقابل، بوسعك أنت أن تسدي لي خدمة من هذا النوع.

ـ أذهب للكلام مع زوجته؟

ـ لا. تمارسين الحب معه.

ـ قد تتأذى صداقتنا من ذلك!

ـ صداقتنا قوية، إنها فوق تلك التغيرات التي آمل أن تكون طارئة.

ـ تعيرينني زوجك إذن!

ـ لا أحب فكرة الإعارة هذه. هو ليس شيئاً، حتى لو كان آلة للجنس.

ـ ماالعمل إذن؟ ما الطريقة؟ كيف السبيل لإغرائه، وكيف الوصول إلى سريره؟

ـ بالنسبة للإغراء، أنا أثق بك تماماً.

ـ نعم، لكني أنا التي ستكون آلة الجنس، في هذه المسألة... أود أن أخدمك حقاً، وأعترف حتى أن الأمر يشوقني ويثير اهتمامي. لكني لا أريد أن أتعرض للخسائر أثناءه. سأقدم لك، بدوري،

اقتراحاً: تقنعيه أن يطلبني للزواج. في جميع الأحوال لن أكون إلا زوجته الثالثة. شرعياً، له الحق بزوجة رابعة.

- إنك جشعة. الآن أشعر بخوف على صداقتنا. ستصبح واحدتنا، بالضرورة، منافسة للأخرى. أنا لم أشارك زوجته الأولى به. سيختلف الأمر معك. ستكون شراكةً حقيقيةً. ليلة معي وليلة معك! مثلما كان يحدث في زمن جداتنا، باستثناء أننا لسنا مخدوعات، وأننا نلهو بالأمر.

- الأمر مسل. لن نشعر بالضجر. لننتقل إلى الترتيب العملي. سيكون لكل منا بيتها، ويفضل أن يكون في الحي نفسه. سنرى بعضنا كل صباح لتحكي كل منّا عن ليلتها.

- إن نجحت خطتنا، أطلب أن نتعاهد على شيءٍ: أن نظل صديقتين مهما حصل.

- مهما حصل؟ إنها مخاطرة. قد تخرج صداقتنا أكثر قوة أو قد تتحطم.

- لقد أحببنا بعضنا على الدوام. فَلِمَ سيأتي رجل، على حين غرة، وينجح في كسر علاقة بهذه القوة؟

- أنا أيضاً أسأل نفسي هذا السؤال.

لم تجد الشقراء صعوبة في جعل زوجها يقبل فكرة زواج ثالث. قدمت له الأمر كإجراء تريد منه البقاء بجوار صديقتها القديمة. بالكاد دهش الرجل من هذه الجرأة. ودون تعليق، استشهد بتأكيد المرأة الجميلة في *ألف ليلة وليلة*: «نحن النساء، نصل إلى كل مانريده!».

ومثلما جرى مع الشقراء، تم زواج السمراء سراً. احتج الأهل ثم انتهوا بقبول الأمر. أُسكنت الزوجة الجديدة في شقة فاخرة بمركز المدينة، مقابل البحر. عزمت الشقراء على البقاء وحدها في الأسبوع الأول. لم يكلمها زوجها حتى بالهاتف. كانت صديقتها هي

التي اتصلت بها للسؤال عن أخبارها. أعلمتها أنها لم تمارس الجنس معه بعد. كانت تدعه يداعبها، لكنها تصده ما أن يحاول المضي أبعد من ذلك.

- لِمَ تفعلين ذلك؟

- كي أجعله يهوي. يجب أن يرغب بي أنا، لا سواي. يجب ألا تعترض بيننا أية صورةٍ لامرأة أخرى. لا تحقدي علي. إنها استراتيجية ممتازة للوصول إلى غايتنا.

أحست الشقراء ببعض القلق. لم تكن تتوقع ردة الفعل هذه. بعد بضعة أيام، زارها زوجها، اندفع نحوها، وألقى بنفسه فوق جسدها. اعترَفَ أنه وجدَ صديقتها معقدة، وأنه نادم على ذلك الزواج. ثم قال وهو ذاهب إنه مصمم على وضع حد لتلك العلاقة. شعرت الشقراء بمزيج من الارتياح والندم. اتصلت بصديقتها، التي كانت تستعد للسماح لزوجها، أخيراً، بفض بكارتها، حيث أنها، وهي في السادسة والعشرين من عمرها، كانت ماتزال عذراء. «سيتم الأمر الليلة.»، أسرّت لصديقتها. وللرجل قالت، وقد تعرّت: «لاتضطرب. لدينا الوقت. في المرحلة الأولى، تمزق غشاء بكارتي. لن تستخدم عضوك، بل لسانك وصبرك الكبير. ربما سأكون أول فتاة تمزَّق بكارتُها بواسطة لسان بهذا الجمال... »

صباح اليوم التالي، انتظرت الشقراء زيارةً أو اتصالاً من صديقتها. لكن أحداً لم يطرق بابها. دام الصمت عشرة أيام وعشر ليال، حتى أن الرجل أهمل أعماله. وجاء مجهولون يطرقون باب الشقراء لسؤالها عن مخبَئه. غادر الرجل سريرَه لبضع ساعات، وقد علم بالاضطراب الذي حصلَ، ثم عاد إلى جميلته السمراء، الشبقة، التي اتضح أنها مليئة بالحيَل، وخبيرة بالغرام. كانت تحب أن تعصب عينيه وتلاعب جسمه بنعومة. كانت تمنعه أن يقذف وتجبره أن يبقى أطول وقت ممكن في حالة انتصاب، دائرةً حوله، مداعبةً

إياه بشعرها الطويل. كانت تطلق على ذلك اسم «الحب الهوائي». لم يكن الرجل المستلقي، يرى من أين تنبثق المتعة. كانت تتكلم، بل إنها كانت تجد متعة شديدة في لفظ العبارات الجنسية ببطء وباللغة العربية. كانت تمارس ماتسميه الأوساط التقليدية «قلة حياء». لاخجل ولاخفر بل انعتاق وحرية تمتعٍ، وخرق لكل ممنوع. هكذا راحت من لم تكن تقرب الكحول أبداً، تطالب بكأس من النبيذ الجيد في لحظات التلاطف. كان الرجل يطيع دون أن يقول شيئاً. كان يرى أن هذه الفتاة تتمتع بخيال وقوة جاذبية تدعو للقلق. كانت متعته متنوعة ومركزة إلى حدٍّ لم يعرفه من قبل. لقد أعجبه الوضع فاستسلم بهدوءٍ للُعبة. كانت تقوده إلى حيثٍ لا يرى له نهاية، وهي تعرف تماماً ما الذي تفعله. كانت تسيطر على الوضع. تملك رجُلَها وتملي عليه، بين مداعبتين، ما يجب عليه أن يفعله. في إحدى الأمسيات، طلبت منه، بعد أن أثارته، أن يذهب ويمارس الحب مع زوجته الأولى التي لم يعد، منذ سنين، يرغب بها. وأصرت أن ترافقه كي ترى إن كان ينفذ أوامرها فعلاً. كان الموقف غريباً بالطبع. ولحسن الحظ كانت الزوجة الهرمة مسافرة. عندها قادته إلى صديقتها الشقراء. وجد الرجل هذا الامتحان أقل قسوة. كانت الزوجة الثانية تنتظره بقميص نومها. جلست السمراء في الصالون وانتظرت. بعد بضع دقائق خرج من غرفة النوم، شاحب الوجه، وعلى أهبة الغضب. ما أن وقعت عيناه على السمراء حتى عدل عن الصراخ، ارتدى ثيابه وذهب. تكونت لدى الشقراء قناعة بأن زوجها قد انسحر، إذ لم يحدث لديه أي انتصاب وكان شديد العصبية. تبادلت الصديقتان القبلات دون كلام.

بدأت الشقراء تسأل نفسها إن لم تكن الفكرة التي خطرت لها في غاية السوء. ماعاد هناك شيء كالسابق. فكرت بعهد الصداقة الذي تعاهدتا عليه، وأطلقت تنهيدة. في تلك اللحظة أدركت أنها بصدد خسارة كل شيء. كانت في وضع سيء لايسمح لها بالتعبير عن

غيرتها. ما الفائدة؟ لقد لعبت بالنار. في الوقت الحاضر لم يبق أمامها سوى انتظار تتمة الأحداث.

بعد انقضاء ثلاثة أشهر، طلق الرجل زوجتيه الأوليين. أمّن لكل منهما عائداً جيداً ولم يعد إلى الظهور.

أما السمراء الجميلة، فقد غادرت المدينة واستقرت في مزرعة برفقة زوجها الشرعي الذي أعطته أطفالاً كثيرين.

3

الأفعى الزرقاء

أحب السفر بالمركب. فالمركب في هذا الزمن، زمن السرعة وازدحام الأجواء، يعدُّ ترفاً. يستغرق السفر فيه وقتاً كافياً. إنه مناسبة لعدم التفكير في شيء، ولإعداد النفس لدخول إيقاع جديد. الوقت صيف وأنا كنت على المركب المسمى «مراكش»، الذي يصل بين سيت وطنجة. بالكاد أصبحت على متن المركب حتى قدم نحوي رجل قصير القامة، خمسيني، فاتحاً ذراعيه. حياني وعانقني. لم أكن قد رأيت هذا الرجل قط. اضطربت قليلاً ولم أقل شيئاً. ظاهرياً، يفترض أن يكون هذا احتقاراً، خطأً أو تشوشاً يعود للشبه بيني وبين أحدٍ يعرفه. لا. طمأنني الرجل بأن الموضوع ليس شيئاً من ذلك:

ـ أدعى حاج عبد الكريم. ولدت في مراكش في يوم حار بشكل استثنائي، متزوج من امرأة صقلية وأب لثلاثة أطفال يعرفونك ويحبونك. أنا للأسف لا أقرأ، زوجتي هي التي تقرأ لي. لا أقرأ، لكن لدي خبرة في الحياة، في ما هو مرئي، وما ليس كذلك. مهنتي؟ جعلُ الأجانب يحبون بلدي، تقديمه لهم بجماله وتعقيده. لكن ما أتى بي إليك، (اللحظة التي انتظرتها طويلاً)، هو الرغبة بأن أحكي لك قصة. قصة حقيقية. أنت كاتب، ألستَ كذلك؟ استمع إلي إذن. القصة هي قصة ابراهيم، الرجل الهادىء، الطيب، الذي يحاول أن يعيل

أسرته. إنها قصة مصير شخصٍ، وجد نفسه على طريق الشر. اسمع...

كان الحاج عبد الكريم وسط صالون، وكان المسافرون قد هرعوا للاستماع إليه:

I

كان قد مضى وقت طويل منذ كفّ السواح عن الوقوف أمام ابراهيم وثعابينه. فلم تعد الثعابين وقد تعبت وتقدمت في العمر كثيراً وفقدت اليقين، تستجيب لموسيقا حاويها. عبثاً غَيَّرَ الناي، وغَيَّرَ اللحن. بقيت الثعابين بالكاد تُخرج رأسها، إما لأنها مذعورة أو نائمة. والحل الوحيد لجعل الاستعراض جذاباً من جديد، هو تغيير الحيوانات بدلاً من تغيير الآلة الموسيقية. قرر ابراهيم أن يضحي ويشتري أفعى لامعة، فتية وحيوية. جُلِبت إليه الأفعى من قرية مشهورة بزواحفها. لاطَفَها، ضايقها،ثم عزف لها قطعة موسيقية من تأليفه. كانت موهوبة جداً، ترقص بشكل غير اعتيادي. كانت تـتـثـنّى وِفْقَ المراد مـتـتـبِّعَةً الإيقاع بصورة دقيقة، مادّةً لسانها كي تضبط الترنيمة. استعاد ابراهيم ثقته بنفسه. فُتِنَتْ الثعابين بالأفعى الزرقاء الجميلة.

في الليلة التالية، رأى ابراهيم حلماً غريباً: كانت الساحة الكبيرة مقفرة، ينيرها بدر تام. كان جالساً في الوسط، مصالباً رجليه. لم يكن يستطيع الحراك، حتى ليقال إنه كان مثبتاً إلى الأرض بواسطة لاصق خاص. مقابله، ظهرت الأفعى بملامحِ شابةٍ زرقاء اللون، لم يستطع أن يعرف إن كانت ترتدي شالاً أزرق أم أن ذلك كان لون جلدها. كان لها جسد امرأة ورأس أفعى. راحت تكلمه وهي تدور حوله: «مساء هذا اليوم لعـبـتُ اللعبة، وأريتُكَ ما أنا قادرة على فعله. لستُ تلك التي تظن. لن تحكم علي بالـتـثـنّي في سبيل نيل إعجاب سيّاحك. أستحق شيئاً أفضل. أنا شابة أرغب أن

أعيش وأركض في الحقول وأحس بالانفعال. أرغب أن أختزن المتع والذكريات لأيام شيخوختي. إذا كان سيّاحك يَنشدون الانفعالات القوية، فليس أمامهم سوى الذهاب إلى الأمازون أو إلى بلد الأحجارالتي تملك ذاكرة. أُنذِرُك. إن قدَّمتني في استعراضك، ستندم... مع أني لست واثقة إن كنتَ ستجد الوقت كي تندم على أي شيء...»

كانت وهي تكلمه، تدور حوله ملامسةً يده أو وركه. حاولَ الإجابة، لم يستطع إخراج صوته من حنجرته. كان مخدراً. وكانت، هي الواثقة من نفسها، تتابع حديثها: «لا تحاول أن تشرح لي مشكلتك وتستدرّ شفقتي. تخلَّ عني تَسلمْ. لدي الكثير لأفعله. هذا فصل جني المحاصيل وعليَّ أن أعود لأقبعَ تحت الأحجار. أحب طراوة أيدي الفتيات اللواتي ينحنين لجمع القمح. سيّاحك يسببون لي التقزز. إنهم ليسوا جميلين. وأنت تكتفي بإكراميّتهم الزهيدة. ليكن عندك قليل من الكرامة. الآن بإمكانك الانسحاب. الساحة ستمتلئ. الشمس ستشرق. وأنت ستفكر. إذا أردتَ أن تحظى بالسلام، أعِد لي حريتي.»

استيقظ ابراهيم مذعوراً، مرتجفاً ومحموماً. فتش في الصندوق الذي تنام فيه الثعابين. كانت الأفعى هناك، مطمئنةً وغارقةً في نوم عميق. توضأ بعد أن اطمأن، ثم صلى صلاة الصبح. رفع يديه وسأل الله العون والحماية: «يا الله، أنت الكبير والرحيم. احمِني من السوء ومن عديمي الضمير. أنا إنسان ضعيف أكسب لقمتي بفضل الحيوانات. ليس لدي ما أحارب به الشر ولا ما يمكّنني من تغيير مهنتي. الزمن صعب. نحن حواة أباً عن جد. ولدت ونشأتُ وسط الزواحف. لم أشعر بثقة تامةٍ بها قط. إنها غدّارة. أنا مسلم صالح، لا أؤمن بالتقمص ولكني ألتقي بأشخاصٍ قلوبهم وأرواحهم هي قلوب وأرواح أفاعٍ عتيقةٍ، غرقَتْ في الرياء والخبث».

لم يكن من عادته أن يصلي وأن يبرر نفسه. منذ سنين طويلة

وهو يمارس هذه المهنة دون أن يطرح على نفسه الأسئلة. هزّه حلم الأمس فقد كان فيه شيء ما حقيقي. شعر ابراهيم بالخوف. خوف من حادث ما. خوف من العين الحاسدة.

كان عليه ذلك اليوم أن يرقّص ثعابينه في فندق كبير أمام جمع من السيّاح الذين دفعوا مبالغ إضافية ليشهدوا ذلك العرض ذا الغرائبية المضمونة: رؤية أفعى ترقص على وقع موسيقا إنسان جبليّ. استذكَرَ ابراهيم أحد الأدعية قبل مغادرة البيت. تجنب أن يركب دراجته وعلق حول رقبته يداً فضية. لقد تمّ، من حيث المبدأ، طرد الخوف.

وصل إلى الفندق في الساعة المقررة. كان السيّاح قد انتهوا للتو من تناول أكلة محلية وشربوا نبيذاً أو بيرة. كانوا سمينين، يخالطهم النعاس قليلاً. قدّم المذيع ابراهيم: «سيداتي سادتي نقدم لكم الآن، ما طالما سمعتم عنه دون أن تروه قط. ستشاهدون ما يصنع الفرق بين الشمال والجنوب. ستشاهدون ما ليس من السحر بل من الشعر: أشهر حاوٍ في الساحة. الرجل الذي يخاطر بحياته لكي يمنحكم المتعة. نقدم لكم، ابراهيم وثعابينه...»

كانت آلات التصوير مهيأة. بعض السيّاح لم تظهر عليهم الإثارة؛ كانوا يشربون الشاي بالنعناع مع الكعك. ظهَرَ ابراهيم واهياً ومتردداً. حيا الجمهور بانحناءة. خيّل له أثناء انحنائه أنه لمح امرأة الحلم الزرقاء. رأسها رأس عصفور وترتدي جلابية زرقاء تشد جسمها. كانت بدون ثديين تقريباً وتجلس على غصن شجرة، تؤرجح ساقيها مثل طفلة. عزف ابراهيم على الناي مؤخِّراً لحظةَ فتحِ صندوق الثعابين. طار النعاس من أعين السيّاح. ثبّت الجميع أنظارهم على الصندوق. دفع ابراهيم الغطاء وغار بيده في جوف الصندوق. أمسك بالأفعى. في الواقع هي التي تشبثت بمعصمه. في اللحظة التي كاد أن يداعب رأسها فيها، لدغته. كانت ماتزال تحتفظ بسمها، رغم أنها أُفرغت منه أمام عينيه حين

اشتراها. سقط جثة هامدة. امتلأ فمه بالدم والزبد الأبيض. كان هذا الزبد سماً. ظن السيّاح أنهم أمام مزاح ثقيل. احتج بعضهم وقد شعر بالإحباط، وتقيأ آخرون غداءهم وقد هزهم هذا الموت. التقطتْ الصور كذكرى لموت فجائي. ذكرى للفنان الذي مات على الخشبة.

نقلت جثة ابراهيم إلى المشرحة الرئيسية ووضعت في الدُرج رقم 031 .

II

على غلاف كتاب القراءة المدرسي الذي يحمل عنوان (سم 2)، يبدو الطفلان علي وفاطمة، يمسك كل منهما بيد الآخر على طريق المدرسة. كبر الطفلان. ومنذ الطفولة وُعِدَ كل منهما للآخر. كان بوسعهما أن يؤلفا زوجاً من البرجوازيين الصغار ناعمي البال، الذين لا يثيرون المشاكل، العاقلين مثل الصورة التي حلم بها الآلاف من تلامذة المدارس. تزوج علي وفاطمة لأنهما متحابان ولأنه لم يكن بمقدور أحدٍ منع هذا الزواج. رغم المظاهر كانت هناك أشياء عديدة تفرقهما. فقد درس علي واشتغل في شركة للقطاع الخاص. أما فاطمة فتنتمي لوسط متواضع وبالكاد تعرف القراءة والكتابة. كان يقال عن علي بأن لديه نظرة «تُسقط الطير من أعلى سمائه»؛ ويقال أيضاً، إشارةً إلى غرامه بالنساء، «عيناه خضراوان»، هو من كانت عيناه سوداوين. كان يحب المشروب والقيادة بسرعة وسرقة نساء الآخرين. وفاطمة امرأة معنية ببيتها وبطفليها، تهتم به وتكرس نفسها كلياً لزوجها الذي جعلها في حالة انتظار دائم له. امرأة قانعة بمصيرها، ليست ماهرة جداً، لكنها حاضرة دوماً. لاتقدم لزوجها أية مفاجأة ولم يعد في شخصيتها مايَخفى عليه. امرأة ممتلئة بحسن النية والإرادة الطيبة. امرأة بلا دفاع، لطافتها الزائدة أشبه بالبلادة. ومثلما فعلت أمها وجدّتها، تعايشت فاطمة مع الضعف الهادئ، إلى اليوم الذي قررت فيه أن تعترض، أن تفعل شيئاً

ما كي تُبقي عليّاً بقربها. لكن حياة علي كانت في مكان آخر. وفي الظاهر، لم يعد هناك مايمكن أن يبقيه في ذلك البيت الذي يثقل عليه الروتين ويجعله كئيباً. عندما تجرؤ فاطمة على الاحتجاج، كان علي يوجه لها صفعتين ثم يمضي صافقاً الباب. لم يخفِ مغامراته المتعددة. كان يغازل الفتيات ولم ينكر ذلك ويعتبر أنه ليس مطالباً بكشف حساب أمام أحد. كان ذلك يؤجج غيرة فاطمة. غيرة مَرَضيّة. لم يستطع الأطباء إعادة زوجها لها. نصحوها بالمهدئات. لم تجرؤ فاطمة على مصارحة أهلها. لكن جيرانها أحسوا بتعاستها. قررت يوماً استشارة عرافة:

«زوجك جميل. إنه يخدعك وسيخدعك على الدوام، الأمر أقوى منه. أرى جمهرة من النساء الجميلات يحطن به ويردن تقبيله. إنه يتمتع بقدرة هائلة ويستطيع منح النساء مايعجز آخرون على منحه لهن. كما لو أنه وُلِدَ كي يُشبِع جميع اللواتي ربط القدر مصيرهن برجال عاجزين. يقوم دوره على معالجة الأضرار. لن تستطيعي فعل شيء. هذا النوع من الرجال لم يُصنع للزواج والحياة الأسريّة. حتى إن خبأته في سجن، سوف يعثرن عليه ويأخذنه منك. كوني شجاعة! هذا كل ما أستطيع قوله لك ياابنتي!». شعرت فاطمة باليأس. أسرّت لخِدّوج، جارتها التي تعمل ممرضة في مشفى البلدية. لم يكن بوسع خدوج إلا أن تكون شريكة لفاطمة، فقد حاولت أن تجذِب عليّاً إليها لكنها فشلت. وهي لم تكن فقط تفهم غيرة واضطراب صديقتها، بل كانت تشاركها فيهما. اقترحت عليها الذهاب إلى ساحرة عُرفت بقدرتها على حل مشاكل الأزواج. لها مكتب في شقة صغيرة وتستقبل الزبائن بناءً على موعد. كانت امرأة شابة، عصرية، قامت بدراسات نفسية تطبيقية. لم يكن لها هيئة الساحرات العجائز المريبات والكئيبات. طلبت من فاطمة عرض مشكلتها. سجلت ملاحظاتها وطرحت أسئلة محددة.

ـ تريدين إذن، استعادة زوجك. تريدين أن يكون لكِ، لكِ وحدك؟

أستطيع أن أصف لك حبوباً تذيـبـيـنها في قهوته الصباحية، لكن فعاليتها ليست أكيدة. قد أصف لك أيضاً هذه العشبة التي تمزج مع الخبز. لكن هناك خطر التسمم وأنت تريدينه بصحته وليس عليلاً كما أفترض...

همست فاطمة بشيء ما في أذن خدوج ثم توجهت للخبيرة:

- لا أريده أن يصير عاجزاً أو كالخرقة. أنا أريده كما عرفته، كما أحبه، قوياً، عاشقاً، وحنوناً.

- في هذه الحالة سأعطيك الوصفة القديمة الجيدة، وصفة أجدادنا: كرة من عجينة الخبز دون خميرة، أُبقيت ليلة كاملة في فم ميت. ويفضل أن يكون ميتاً طازجاً، وليس جثة نُسيت في المشرحة. يكفي أن يعض زوجك هذه العجينة، أن يأكلها، حتى يتغير ويعود إليك كما تحلمين به. على فكرة، يجب أن تنتقل العجينة من فم الميت إلى فمه. يمكن، في حال عدم تمكنك من جعله يأكلها، تنفيذ العملية أثناء النوم.

ذكرت فاطمة صعوبة العثور على جثةَ، لكن خدوج غمزتها. حاسبت السكرتيرة الجالسة إلى مكتبها في المدخل بجوار غرفة الانتظار.

بعد ظهيرة ذلك اليوم بالذات، جُهّزت العجينة. لَفّتْها خدوج بمنديل وذهبت إلى المستشفى. كانت مناوِبة تلك الليلة. أحياناً، تَصنَع المصادفةُ الأشياءَ بشكل جيد. نزلت إلى المشرحة، فتحت بعض الأدراج باحثةً عن آخر ميت وصلَ، كي تضع العجينة في فمه. كان رقم 031 مايزال فاتراً. وكان فمه نصف مفتوح ومازال فيه زبد أبيض ودم. لم تجد الممرضة أية مشقة في دفع العجينة بين أسنان الميت. وفي الصباح الباكر أحضرتها ملفوفةً بالمنديل نفسه. كان علي نائماً بعمق. فتحت فاطمة فمه برفق ووضعت العجينة فيه. عضها دون أن يدري. لم يستيقظ علي. لقد مات. كان السم مايزال فاعلاً.

أغمي على فاطمة. عندها ظهرت لها المرأة الزرقاء برأس الأفعى، وأسمعتها الحديث التالي: «السحر غير موجود. أما الحماقة، فبلى. أراد أحدهم أن يحتفظ بي دون إرادتي. مات بسبب ذلك. وحاولت إحداهن أن تسير عكس تيار النهر، فخسرت كل شيء. الأول تنقصه الكرامة والثانية ينقصها الكبرياء. في هذه الحالة أو تلك، أنا من يستخلص العبرة من القصة؛ يجب الحذر من الأفاعي، خصوصاً عندما يلعنُهنّ القمر في المساء الذي يكون فيه بدراً مليئاً بالمرارة والقرف. وداعاً يا ابنتي. ستنامين أخيراً بسلام وإلى الأبد. كما ترين أنا لست شريرة تماماً...»

4

خبر منوعات، خبرحب

هذا خبر من المنوعات. ليس خبراً تافهاً بالتأكيد. إنه لايصدق، لكنه حقيقي. حدث ذلك في شهر تشرين الثاني 1980 في الدار البيضاء. قصة سليمان هي قصة مفارقة:

ذلك المساء، كانوا كثيرين، ينتظرون، في البرد والفوضى، سيارة أجرة. هي أيضاً كانت تنتظر، واثقةً، بيدين مضمومتين فوق بطنها. لا أحد يزاحم امرأة حُبلى، بل يحترمونها ويساعدونها. كانت قد وصلت للتو ومع ذلك ستكون أول سيارة أجرةٍ قادمة من نصيبها.

سليمان رجل مسالم. يكره العنف ويتجنب الزحام. أوشك مرةً أن يتعرض للعقاب على يد جمهرة من الناس الغاضبين، نافدي الصبر. بُعِّجت سيارته الحمراء الصغيرة السيمكا 1000 نتيجة المشاجرة. منذ ذلك الوقت صار يأخذ حذره، فلم يعد يتوقف في المحطات، بل يفضل أخذ الزبائن حيثما يصادفهم.

ذلك المساء، بينما هو عائد إلى بيته، مر أمام الموقف . لمح المرأة الحامل، فعاد وتوقف إزاءها تماماً. لم يجرؤ أحد أن يعترض. كانت المرأة شابة وكان من الواضح أنها غريبة عن المدينة. كانت تبدو تائهة بعض الشيء. سألها سليمان إن كان «الحدث السعيد» سيتم قريباً. أجابته:

ـ الشهر القادم. على كل حال لا تخشَ شيئاً. لن ألِدَ في سيارتك!

ابتسم ولم يعد يقول شيئاً. وعندما وصل إلى عنوان درب غيلليف، 24 مكرر، توقف ونزل يفتح لها الباب. رجته المرأة أن ينتظر قليلاً، ريثما تجلب له أجرة المشوار من أختها. انتظر سليمان وهو يدخن سيجارة. بعد خمس دقائق، عادت المرأة باكية:

ـ يا إلهي ماذا سيحل بي؟ لا أحد في بيت أختي. لا بد أنها ذهبت في رحلة. حتى الجيران ليسوا موجودين... كيف أدفع لك وأين أذهب مع طفلي؟ يا إلهي!... أنا غريبة... لا أعرف أحداً هنا...

تأثر سليمان بشدة و سَخِرَ من الأجرة. لم يكن بوسعه ترك هذه المرأة وحيدة في مثل تلك الحالة من اليأس.

ـ سيدتي، لن أتركك في هذه الحالة. نحن المسلمين علينا أن يساعد بعضنا بعضاً. أدعوك إلى بيتي لقضاء هذه الليلة بانتظار عودة أختك. ستسعد زوجتي، كما أن أطفالي سيسرون... لوجود زائر بينهم. بيتنا صغير، لكن هناك دوماً متسع للناس الطيبين...

ـ لا ياسيدي، أنت طيب جداً. لكني لا أجرؤ أن أزعجك. ثم إن زوجتك قد لا تفهم...

ـ زوجتي مخلوق رائع. لقد أعطتني ثلاثة أطفال جميلين، بنتاً وولدين، وكثيراً من السعادة... زوجتي طيبة جداً.

عبّر سليمان عن مزيد من الإصرار. قبلت المرأة. جرى كل شيء في البيت بشكل ممتاز. كان الأولاد مستثارين. تخلوا لها عن غرفتهم. وكانت زوجة سليمان في غاية اللطف وأجزلت النصح لأم المستقبل. بحثَتا معاً عن أسماء وسهرتا حتى ساعة متأخرة من الليل وهما تثرثران.

كان سليمان فخوراً بشكل واضح من حسن تصرفه ومن سلوك زوجته. نهض باكراً في الصباح. كانت السيدة الحامل قد نهضت قبله. وكانت، وقد ارتاحت واسترخت، تتصرف بحرية كما لو أنها

فرد من أفراد العائلة. تمنى لها سليمان نهاراً خيّراً واقترح عليها أن يأخذها إلى بيت أختها. بدت كما لو أنها لم تفهم جيداً مايقوله. كرر عليها الاقتراح:

- أستطيع أن آخذك إلى هناك إن أردت، إلى بيت أختك. ربما قلقت...

- بيت أختي؟ ولكن أية أخت؟ لا أخت لي، وأنت تعلم هذا جيداً... ثم هل نسيت أني هنا في بيتي وأن هذا الطفل الذي أحمله هو طفلك!...

صرخ سليمان من الذهول ونادى زوجته:

- إننا طيبون أكثر من اللازم! لطالما قلت لك ذلك! طيبون أكثر من اللازم. شيء لايصدق. تريد هذه المستورة أن تنال منا. إنها تزعم أنها في بيتها وأني والد طفلها... إنها مجنونة على كل حال، أنا لن أناقش معها، وأثق بعدالة بلدي. سأستدعي الشرطة.

شجعته زوجته أن يفعل. كانت الضيفة تقهقه ضاحكة، وكانت قد بدأت تعامل زوجة سليمان كخادمة:

- أحضري لي الفطور. تعالي لأبوح لك ببعض الأشياء. هذا الرجل الرزين والصموت والذي لايهمل فرض صلاة واحد، سليمان هذا زير نساء كبير! أترين سوار الذهب هذا، قدمه لي هدية في الشهر الماضي، وهذا العقد من المرجان، قدمه لي هدية في اليوم الذي قبلت فيه أن أمنحه نفسي... أمر غريب، لدينا المنديل نفسه أنت وأنا! يالها من سماجة!...

- اسكتي. ليس لدي ما أقوله لك.

سرعان ما اتخذت المسألة سياقاً جدياً. طرحت أمام العدالة. قرر القاضي، قبل دراسة القضية بتفاصيلها، تكوين ملف طبي لكل صاحب شكوى. أجريت تحاليل للبول والدم وكذلك سائل سليمان المنوي. قد لا تثبت هذه التحاليل شيئاً فهي مسألة شكليات. مع ذلك

فإن ماتم اكتشافه سوف يلخبط هذه القصة تماماً. كان رأي الأطباء قطعياً: سليمان لا يمكن أن يكون والد هذا الطفل القادم. لأنه عقيم. هكذا كان على الدوام.

صعقت هذه الصدمة المسرحية سليمان. راح يشرب. لزم سيارته، يعيش وينام فيها. أعلنت زوجته إضراباً عن الطعام وكشفت للقاضي اسم والد أطفالها. إنه مالك بيتهم. حاولت أن تشرح لمن ودّ الاستماع، أنها لم تخُن زوجها مطلقاً، وأنها قامت باستصناع هؤلاء الأطفال بدافع حبها له، فالرجل على حد قولها: «لا يكون عقيماً أبداً. والعُطْلُ يكمن دوماً في المرأة!»

5

الميراج

لا أحب العطلة الصيفية. عليَّ القول إني لا أشعر، نتيجةَ كوني لاأعمل شيئاً بيدي، بالحاجة إليها. حتى أني لا أعرف ماهي. يبدو أنها راحة، تغيير في الإيقاع والعادات. وأنا لا أرغب بذلك. إيقاعي هو ما هو. بطيء وبلا مفاجآت. وعاداتي أقرب للـهَوَس وأخشى أن أفقدها إن سافرت مثل الجميع لقضاء العطلة في شهر آب. عاداتي تتحملني وتساعدني على تحمل نفسي. إنها بسيطة وأنا لا أطلب إلا شيئاً واحداً: ألا يزعجها أحد وأن تُترك لي كما هي.

جميع الذين ينطلقون في اليوم نفسه والساعة نفسها على الطرقات، لديهم أيضاً هَوَسهم: أن يكونوا مثل الآخرين، أن يعملوا مثلما يعمل الآخرون، ألا يفوتهم شيء من الولع الجماعي. باختصار: مجرد طريقة ليطمئنوا أنفسهم ويضمنوا أنهم لن يموتوا وحيدين أو لن يموتوا بلهاء. لا ينطبق هذا علي. فسيان عندي إن مت أبله أو ذكياً!

لا أحب العطلة الصيفية لأني لا أحب السفر: أن أسرع إلى محطةٍ، حاملاً حقيبة ثقيلة في يد وكيساً في الأخرى وبطاقات السفر بين الأسنان. أن أقف في الطابور في مطار، لتسجيل الأمتعة، وأتحمل توتر المصطافين الذين يخافون ركوب الطائرة أو عصبية الذين يشعرون أنهم مضطرون لاصطحاب الجدة التي فقدت الذاكرة

والتي كانت ستسعد إن هي بقيت في بيتها مع عاداتها الأليفة. وأن أُدفع من قبل مجموعة من الرياضيين غير المكترثين. أن أنطلق متأخراً وأصل مرهَقاً في ساعة غير معقولة، لأبحث عن تكسي... كل هذا أدعه لكم وأفضل أن أبتعد في زاوية من البيت كي أصغي إلى الصمت وأحلم بقصص حب وحشية...

لكني لا أستطيع الابتعاد. ليس لي الحق بالوحدة. أنا أيضاً، وعلى مضض، مصطاف كلاسيكي، ينطلق في لحظات السير الأكثف، معانياً من جميع المتاعب. ليس لي الحق حتى بالاعتراض ولا بالتعبير عن مزاجي السيء. الأطفال لا يرحمون؛ إنهم يسخرون كل السخرية من جميع هذه الاعتبارات، والشيء الوحيد الذي يهمُّهم، هو لقاء رفاقهم، كي يركضوا ويسبحوا ويرقصوا ويغنوا...

لهذا السبب وجدت نفسي، هذا العام، في الميراج، وهو مكان جديد لقضاء العطلة الصيفية. حظي كبير. فهو مكان غير معروف وغير مطروق كثيراً. إنه نوع من النوادي الخاصة التي يتم اختيار أعضائها من قبل زملائهم. حوالى عشرين شقة صغيرة حول مسبح نظيف نظافة معتبرة. يجد المرء نفسه على شاطئ البحر بمجرد نزوله سلماً، رمال ناعمة وأمواج عالية وجميلة وبحر بألوان قوية. إنه الأطلسي. يخيم في هذا المكان صمت يثير القلق، تقطعه في الصباح صيحات أطفال يغطسون في المسبح. باختصار: شيء لاعلاقة له بالإجازات التي يحكون عنها في التلفزيون. مكان سري، هادىء، نموذَجي بالنسبة لشخص كاره للبشر، يَقبل القيام ببعض التنازلات. تعود ملكية الميراج لشقيقين يتمتعان بكثير من الكفاءة، وهما من أصيلة، المدينة الصغيرة الواقعة جنوب طنجة. في السبعينات هاجر الأصغر إلى أوروبا. عمل بحماسةٍ وتعلّم أن الطموح فضيلة، خاصةً عندما يكون المرء فقيراً. وتابع البكر دراسات عليا وسافر لبعض الوقت إلى الخارج.

الشقيقان فخوران اليوم بما أنجزاه: مكان لقضاء الإجازات.

في هذا المكان راح خيالي، إذ أثار كلُّ هذا القدر من الصمت فضولي، يراقب ويخترع كل شيء. كل شيء؟ لا. تقريباً كل شيء. يجب الحذر من الكتّاب الذين يقولون إنهم يحبون الإجازات لأنها تمكّنهم من المشاهدة والتأويل والتخيل دون انقطاع.

أنا جالس في الظل وأراقب مايجري. لا شيء أو تقريباً لا شيء. مع ذلك تحدث أشياء في هذا المكان المثالي. هذه الجنة الصغيرة، هذه الشقق الجديدة تماماً، بين أناس متحضرين، لطفاء وسعداء بالضرورة لوجودهم هنا. لا أرى شيئاً. لكنني ألتقط الأفعال الصغيرة، أوفِّق بينها، أرتِّبها، مما يعطي حصيلة غريبة أو عاديةً بشكل ميؤوس منه.

الشقة 14 يشغلها، ولمدةٍ طويلة، زوجان من الإيطاليين وأطفالهما. الزوج مهندس، يقود فريق عمل مكلفاً بحفر قاع البحر لوضع أنابيب غاز. له ضحكة مدمِّرة. الأطفال يعبدونه لأنه يعرف كيف يسليهم ويلعب معهم. يذهب في الصباح الباكر ويعود أول المساء، محملاً بالألعاب. ابنتاه بعمر ولديّ. يتواصلون فيما بينهم بالحركات والإيماءات ويستمتعون كثيراً. إحدى البنتين تأكل كثيراً. الأخرى لا تأكل أبداً. تبقى على قيد الحياة بفضل وجبتَيْ حليبٍ، يُجلب لها خصيصاً من إيطاليا. كانت في البداية ترفض حليب المغرب. للجسمِ، حتى إن كان صغيراً، متطلباتُه وعاداته. أمهما تدعى باولا. مضى عليها أكثر من شهرٍ وهي تعرّض جسمها للشمس. فاكتسبت لونها البرونزي بشكل منهجي. هذا كل ماكان عليها أن تفعله. باولا ضجِرة. باولا تنام بشكل سيء. باولا لا تأكل جيداً. باولا أصبحت تصاب بالذعر من كل مالَهُ صلة بالراحة، الشمس، السباحة، السمك المشوي، المياه الغازية، تلفزيون RAIUNO، شنب زوجها طوني، سيزار صديقها في العمل، المعكرونة، صلصة البولونيز، الصلصة النابوليتانية، الصلصة

الحارة، الطلمية[1]، الكسكسي، السماء الزرقاء، السماء القريبة والنجوم غير المكترثة بمصيرها. باولا تبكي كثيراً ولا تعرف لماذا، طوني يضحك بقوة، والأطفال، مخلصين للمبدأ، يصيحون. إلى أن وصلت سامية.

سامية طالبة شابة من الرباط. وُظِّفت بناء على نصيحة صديق مهندس مغربي، للاهتمام بالأطفال. سامية بيضاء البشرة، نهداها صغيران، فخذاها مشدودان، وابتسامتها جميلة رغم منظر أسنانها السيء. هي لاتعرف كلمة واحدة إيطالية وتتواصل مع باولا والطفلتين بالإشارات، مستهديةً من وقت لآخر بمعجم صغير فرنسي - إيطالي. تحبِ سامية المسبح والبحر. وهذه هي المرة الأولى التي تهتم فيها بأطفال. سرعان ما اضطرت لترك البنتَيْن لمصيرهما والانشغال بالأم، التي كانت تُمضي في بكاءٍ بلا سبب، وقتاً أطول مما تمضيه مع طفلتيها في المسبح. سُرّ طوني لملاحظة أن باولا صارت تبكي أقل منذ أن وَجَدَتْ في سامية رفيقةً نموذجية. أما بالنسبةَ للبنتين، فقد استمرتا في الصراخ واللعب لوحدهما. تُعِدّ سامية أطباقاً مغربيةً، تتلذذ كل الأسرة بتناولها. لم تَعُد باولا تستطيع البقاء وحدها. لم تعد تفارق سامية. تبوح لها بما في قلبها. تبكي بين ذراعيها وتغفو مسندةً رأسها إلى كتفها. تضمها سامية إليها، تجفف لها دموعها، بمنديل أحياناً، وبلسانها أحياناً أخرى. يحدث كل هذا غالباً بعد العشاء حين يَنْعَس طوني أمام التلفزيون وتنام الطفلتان. لم تعد باولا حزينة. سامية تتزين وترتدي أثواباً جميلة وترافق الزوجين للعشاء في المدينة. يعمل طوني كثيراً. يتحمل مسؤولية ولا يستطيع أن يأخذ حتى يوم إجازة واحد. يروق لِباولا التجول في الشقة، عاريةً تماماً، في وقتٍ متأخر من المساء. ترتدي سامية بلوزة واسعة كقميص نوم، تُبرز نهديها واستداراتها

---

(1) الطلمية: حلوى مسطحة الشكل من الدقيق والزبدة والبيض.

تحتهما. يدا باولا تحبان مداعبتها. تفعل ذلك وهي تضحك. سامية تخشى الدغدغات. تصرخ وتسرع لاجئةً إلى غرفتها. تفتح باولا الباب بالقوة ولا يعود يُسمع شيء. فقط صوت الأمواج وشخير البنت البكر التي تأكل كثيراً.

لا يحدث شيء في هذا الإطار الرائع الذي يتوقف فيه الزمن من وقت لآخر، ذي الشمس الحارة والقيلولات الطويلة والناعمة. كل شيء هادئ. المالك يسهر على طمأنينة الجميع. لا شيء ينقص. الرفاه كامل، الوحدة جميلة والليالي هانئة.

في الشقة 15 يقيم اثنان تنطبق عليهما صفة التكتم تماماً. لا أطفال ولا ضجيج. الرجل صموت يمضي في الصباح بعد أن يغطس في المسبح، ويعود مساءً بعد أن يسبح في البحر. المرأة شابة، جميلة، وأطول منه. خجولة تمشي وهي بالكاد تتجرأ على النظر حولها. يبدو أن جسدها يعاني من الضجر. فالطريقة التي تعمد إليها في طَلْيِهِ بالمُطَرِّيات، شهوانية. نظرتها زائغة وعيناها صغيرتان وعميقتان، كأنهما تتطلبان اللذة. تمشي ببطء وتدخن كثيراً. ترتدي قبعة سوداء تمنحها مزيداً من الأناقة والسحر. رجُلُها لا يكلم أحداً. يُشاهَد في المساء ذارعاً الشقة جيئةً وذهاباً، ملصقاً هاتفه النقّال إلى أذنه. لا أحد يعرف مع من يتكلم. هي كذلك لا تعرف مصدر هذه الاتصالات التي تدوم، في بعض الأحيان، وقتاً طويلاً. تؤكد أنها غير فضولية وأنها تجنب نفسها الاقتراب من أعمال زوجها. تقول، إنهما تزوجا منذ وقت غير طويل وأن باكو أسلَمَ حتى يستطيع الزواج منها. وهذا دليل على الحب والهيام. تُمضي أيامها في انتظاره. هي امرأة تشعر بالضجر ولا تُخفي الأمر. لكنها تحب ذلك لأنها تستفيد منه كي تفكر وتحلم. تجلس أمام البحر متأملةً. ربما لاتكره أن يفاجئها أو يقلِقها رَجُلُها. ولكن أين هو؟ وماذا يفعل؟ هي لا تريد أن تعرف. قال لها يوماً: «لا أريدك أن تلتقي بمن أعمل معهم.» استَنْتَجَتْ أن أولئك الناس هم رجال يُحتمل أن يضايقوها

ويغازلوها. فترات صمت هذين الزوجين ثقيلة. عندما يتكلم الرجل، يهمس همساً كما لو أنه يخشى أن يُسمع. في المطعم يدخنان دون أن يتبادلا كلمة واحدة. هو لا يضحك أبداً. هي تضحك أحياناً عندما تكون وحدها. في أحد الأيام لم يذهب إلى العمل. تلقّى عدة مكالمات. عندما انتصف النهار، ارتدى المايوه وسبح كما يجب في المسبح. ذراعاه موشومان. توجد ندبة على فخذه الأيمن. ليست جرحاً بالسلاح الأبيض بل حفرة، نتيجة رصاصة استُخرجت بشكل سيء. هو لا يعرج، لكنه يحاول إخفاء الندبة تحت منشفة سباحة كبيرة. هي لا تعرف السباحة، تبلل نفسها وتسير في الماء ثم تصعد من جديد لتتشمس. تصاب أحياناً بالأرق فتخرج من الشقة في منتصف الليل وتتنزه. يوافيها زوجها ويتشاركان في تدخين سيجارة.

أحضَرَ لها زوجها يوماً، لعبةً، ببغاء آلي يردد كل مايقال له. تمضي وقتها وهي تقول له: «صباح الخير»، يَرُدُّها لها بشكل مشوه قليلاً. يقول الجنائني، إن هذين الاثنين غير متزوجين. ويبرهن على ذلك بحجة أن زوجاً لا يترك زوجةً بمثل هذه الجاذبية وبمثل هذه الشهوانيةِ، وحدها في مكان الاصطياف. ربما كانت مُحتَجزة هنا ولا تجرؤ أن تعترض. إنها الآن بين النوم واليقظة قرب المسبح، تستمع إلى الموسيقا من آلة تسجيل Walk man.

في أحد الأيام غادرث الميراج سيراً على الأقدام. وصل رجُلُها بغتةً. دار عدة مرات حول غرفتهما، أجرى بضعة اتصالات هاتفية، دخن بعصبية عدة سجائر. تمنى أن يسأل الجيران أو الجنائني إن كانوا قد رأوا امرأته، لكنه لم يجرؤ. عادت في وقت متأخر من الليل. سُمِعَت بعض الصرخات المخنوقة. في اليوم التالي، كانا قد غادرا. كان الببغاء، وحده فوق التلفزيون، يردد بشكل آلي: «آخر مرة...آخر مرة...آخر مرة...».

«الميراج»[1]، اسم على مسمى تماماً. ففي شهر آب هذا، تكون الصباحات ضبابية. ويلف الضباب المطعم والفندق اللذين يبرزان رويداً رويداً قبيل الظهيرة، عندما تخترق الشمس الطبقة الكثيفة من الضباب. كان يفضّل إعادة طلاء لافتة المطعم وتنويع قائمة طعامه ومنع تلك الموسيقى السيئة التي تملأ المكان بالصخب . حالياً لا أحد يفكر بتغيير أي شيءٍ في هذا المكان. الوصفة المتبعة بسيطة: التكرار ببطء ونعومة.

أجمل شقة أُجِّرت طيلة الصيف لخياط نسائي باريسي شهير. رجلٌ راقٍ ومثقف، شديد الحساسية وكريم. بيته مفتوح وقلبه مفتوح للصداقة. يتقاطر إليه الأصدقاء. يُفتَنون بالمكان وهو مُنتَشٍ. يحب الصداقة والنقاشات الطويلة التي تدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. حارسه الشخصي، رجل من الجنوب المغربي، أسود البشرة، طويل القامة، يسير بخفة ملاكم من الوزن الثقيل. يحلو للخياط استقبال الأصدقاء. كان يتمنى كثيراً أن يمضي جزءاً من إجازته مع ابنتيه. لكنهما تفضلان التواجد في مكان آخر، تفضلان التنقل والنوم في بيوت أهل البلد الذي تزورانه. لم يحدث له شيء يستحق الذكر. إنه متكتم إلى حد ما ولا يُفصح عن حياته الخاصة. لكن ماحدث لواحد من أصدقائه، يدعى أنجيلو، يستحق أن يروى:

لابد أن أنجيلو كان أجمل صبي في الستينات في العصابة التي أطلق عليها «عصابة طنجة». كان طويلاً، نحيفاً، مهذباً، عاش تجارب عاطفية شهيرة، خاصةً مع جامع تحفٍ، كبير، من تلامذة أوسكار وايلد وجان كوكتو. منذ وفاة صديقه، تابع أنجيلو عمل جامع التحف ووضع كل ماجمعه في منزل رائع في القصبة. كان المنزل من عدة نواحٍ أشبه بمتحف. أشياء قيمة ونادرة. قطع أثاث قديمة. مرايا غريبةٌ. متاهات ترتفع للأعلى. وكان هناك، خصيصاً

---

(1) الميراج: كلمة فرنسية تعني السراب.

لإدهاش الزائر، مسبح على الشرفة. يزور الناس هذا البيت باعتباره مادة فضولٍ، تجمَّدَتْ في طموحٍ رهيب: الخلود. لا أحد يعرف عمر أنجيلو. مازال جسمه ممشوقاً وذهنه حيوياً جداً. تكمن خشيته في ألا يكون حيث يجب أن يكون. مكانه في المركز، ليس مركز العالم، بل على الأقل، مركز السهرة أو العشاء. لا أحد يجرؤ أن ينساه. إنه مسلٍ وفي غاية اللطف. يستطيع أيضاً أن يكون فظاً وحاسماً مع أولئك الذين لا يقدرونه. يأتي أنجيلو كل يوم إلى بيت صديقه الخياط. لا يأتي بمفرده. يصحبه ثلاثة أطفال ووالدهم. يقول إن هؤلاء الأطفال هم أطفاله. تـبـنّـاهم. واستطاعوا أن يبقوه حياً. يعترف أنه يفرط في تدليلهم. الأب حاضر. إنه صديقه وكبير خدمه وكاتم أسراره. اختفى هذا بالأمس دون سابق إنذار، ودون أن يترك أثراً. هَرِمَ أنجيلو دفعةً واحدة. قال إن صديقه يمر في «أزمة». الرجل الذي يحب الجمال، دقةَ الأشياء والوفاءَ بالوعود، قد جُرِح. إنه لا يفهم السبب الذي هُجِرَ من أجله، هو الذي استولى على أولاد شخصٍ آخر، جاعلاً منه مجرد آلة للتناسل، ومُجَرِّداً إياه من أي حق عليهم.

في نهاية هذا الأسبوع، جاء زوجان حديثا الزواج لقضاء ليلة العرس في هذا المكان الهادئ. شغلا الشقة رقم 10. في الصباح شوهدت امرأتان كبيرتان في السن، جاءتا لأخذ الملاءة الملطخة بالدم. أخذتاها ملفوفةً بقطعة من الساتان الوردي على صينية مفضضة. بالنسبة للزوجين، لقد أدليا بالتصريح المطلوب. استيقظا في الساعة 14 ، تناولا الغداء الساعة 17 . أخرجا كرسيين وجلسا مقابل المسبح. لم يتبادلا أية كلمة. يداً بيد، تطلعا إلى البحر، إلى السماء وإلى الأطفال ثم أغمضا أعينهما وهمدا. بعد وقت، نهضا وتنزها طويلاً على شاطئ البحر أيضاً يداً بيد. لم يحدث شيء خارق إذن. لا بد أنهما مارسا الحب عدة مرات. هكذا يكون الأمر دوماً في البداية.

هِرٌّ تائهٌ يبحث عن ملجأ. يحاول الدخول إلى الشقق. يطرده أحد الجنائنيين. تخرج الزوجة الشابة بثوب نومٍ من النوع الذي يُشاهد في أفلام الخمسينات المصرية. تأخذ الهر بين ذراعيها وتقبّله. الزوج لا يحب الحيوانات. يستولي على الهر ويلقي به. يعود الهر. يبعده ثانيةً. ترجوه المرأة الاحتفاظ به. يقول لها الرجل إنه لامجال للاحتفاظ بِهرٍ مريض. يوجّه له رفسة، فيجد الحيوان نفسه في المسبح. يقفز عدد من الأطفال لإنقاذه. الزوجة الشابة تبكي والزوج يجلس حَرِداً أمام التلفزيون. هذه هي مشاجرتهما الأولى. سيكون هنالك غيرها. تدرك المرأة أن العيد قد انتهى. لقد بدأا يضجران. انتظرت الشابةُ المساءَ كي ترتدي المايوه وتغطس في المسبح. إنها بالكاد تُعرف فالظلمة مُخَيّمة قليلاً. يُفهم أنها لاتريد أن يشاهِد أحدٌ جسمَها، عدا زوجها، حالياً على الأقل. وافاها رجلها، ولعبا مثل طفلين. نسيا ماحدث منذ قليل. تظاهرت، كما في السينما، بأنها خائفة. عاكَسَها الزوج ثم طمأنها. وكما في السينما أيضاً، خرج الرجل أولاً ولفَّ زوجَتَه بمئزر حمام جديد. إنه هدية. وَجَدَ صعوبة في إخراجه من ورق السيلوفان. بقيت الزوجة واقفةً ترتعش في الماء. تتظاهر بأنها تشعر بالبرد. اقترب الرجل فاتحاً المئزر الجميل. قطف زوجته وحملها بين ذراعيه حتى الغرفة. مارسا الحب ثم ناما دون عشاء.

عاد الزوجان إلى بيتهما. كانت السعادة عابرة. بدأت الحياة اليومية، ونهاية الأوهام... شيء واحد يؤخر الملل: إنجاب طفل.

للوصول إلى شاطئ البحر، يجب المرور عبر الشقق. كل اثنين وثلاثاء، تأتي جماعة من السيّاح الانكليز للقيام بنزهة على الشاطئ، فوق ظهر الجمال. يَلتقِط لهم الصورَ، رجل قصير النظر. ثم يُنهون المغامرة في مطعم الميراج، حيث يُقدَّم لهم دجاج مشوي أو لحم بقر مشوي. ثم يسافرون بعد الظهر، سعداء بالانفعالات القوية التي

عاشوها. وأثناء مرورهم أمام الشقق، يتخيلون أن فيلماً يُصوَّر هناك، موضوعه السعادة. ربما سيكون عنوانه: «السعادة في الميراج»، ويروي قصة زوجين معذَّبين جاءا يتفكران في وضعهما في جوٍ مثالي.

أخبار عن صديق أنجيلو. تقول الشائعات إنه في مراكش بصحبة امرأة. لاتجرؤ زوجته أن تذهب لإحضاره، خوفاً من اكتشاف الحقيقة. لم يعد الأطفال يأتون إلى المسبح. ولم يعد الأصدقاء يجرؤون على لفظ اسم الهارب أمام أنجيلو. إنه حزين وينتظر الهلالَ على شرفة منزله الجميل، مستذكراً بورخيس: «الهلال يشبه صوتاً خافتاً في المساء، وهو الذي سيقول لي ما سأفعله.»

الجرافة المنتصبة في عرض الشاطئ تعمل ليل نهار. والضجة التي تصدرها تطغى على صوت الأمواج. إنها تحفر وتختفي في الضباب الكثيف.

آخر الصيف يميل الطقس للبرودة في المساء. جمَعَ المالك أعضاء النادي في عشاء وداعي. أمرٌ فيه بعض الحزن. جاء الإسباني مع امرأة أخرى. وجاء الإيطالي بدون زوجته المريضة. سافرت سامية. ربما تكون قد وعدت بالعودة. تزعم باولا أنها أخذت معها بعض الحلي. يقول الزوج إنها على الأرجح، أهدتها لها ونسيت. إنه مساء تسوية الحسابات. تدمع عينا طوني. يعترف أنه نام وحده في سرير واسع طوال الصيف. باولا تبتسم. قرر الخياط النسائي أن يأخذ يومي راحة. لقد حضر إليه الكثير جداً من الناس. هل كان جميع أولئك الناس أصدقاءه؟ هم بالدرجة الأولى، أصدقاء أصدقائه. إنه يخشى الوحدة ويفخر بابنتيه. الأولى منهما تدرس موضوع الجنون وتهتم الثانية بالحيوانات. لم يذهب إلى الحفلة. لابد أنه نائم. أحضر الزوجان الشابان حلوى بالعسل. فتح زوجان فرنسيان زجاجة شمبانيا. انضم إيطاليون آخرون إلى الحفلة. وضعوا موسيقى ورقص البعض على أنغامها. إنهم يرغبون بالعودة

في الصيف القادم. وعد المالك أنه لن يكون هنالك نمل أمام الأبواب في العام المقبل.

خِلْتُ، وأنا أنهض هذا الصباح، بأنني أمام رؤيا: جنود مسلحون يحتلون الميراج. يتجول ضابط، هو ربما قائدهم، حول المسبح، متحدثاً بواسطة هاتف ميداني. هل قامت الحرب؟ فركت عينيَّ. الجنود موجودون ويراقبون الشاطئ. لا أحد يسير على شاطئ البحر. ولا حتى رامبو الكلب أو مجموعة الجمال التي يمتطيها السيّاح.

الشقيقان غاضبان، يطالبان بتفسير. يقول لهما الضابط مُحـرَجاً، إنه لا يفعل سوى تنفيذ الأوامر الصادرة من فوق. ولكن ماذا يفعلون هنا؟ يبدو أن أمير أحد بلدان الخليج قرر المجيء نهاراً للسباحة في هذا البحر.

استقصيت النبأ. لقد ملّ الأمير من قصره الأسباني وتمنى أن يأكل شواء سردين مغربي تحت مظلة، مواجه الأطلسي، مثله مثل أي واحد من المستحمين. ترك الجنود الميراج وتمركزوا حول القصر الجديد الذي انتهى بناؤه للتو. راح آخرون ينظفون الشاطئ الذي ألقى عليه مصطافو يوم الأحد زجاجات سيدي علي البلاستيكية، قشور برتقال، شرائح بطيخ وجَبَس، حفاضات أطفال وفوط صحية، قشور صبار، أكياس بلاستيكية سوداء، وأحذية رياضية عتيقة ممزقة: كل نفاياتِ قريةٍ انتقلت إلى المدينة... لحسن الحظ انه خطرت للأمير فكرة زيارة قصره. سيكون قسم من الشاطئ نظيفاً طيلة يوم أو يومين.

وصل الأمير وطرد الجنود المكلفين بالحفاظ على سلامته. لكن الشاطىء ظل خالياً. لم يجرؤ أحد أن يزعج أميراً تحت الشمس.

6

الحب الأول، الحب الأخير

الحب الأول هو دوماً الحب الأخير. والأخير مُشتهى دوماً. لاأعرف من جسدها إلا الصوت: انفلاتةٌ قلقةٌ، حارةٌ ومتغيرة. الصوت الذي يصلني في ضحكةٍ، تنهيدةٍ أو همسة، تسمح لي أن أتكهن بشكل الردفين والنهدين. تعلمتُ كيف أكون منتبهاً لمسارات الصوت. قال لي ضريرٌ يوماً، كل شيء يمكن للصوت أن ينبئ عنه. وهكذا فإنني عبر هذا الصوت، ألامِسُ، مغمضَ العينين، ذلك الجسد. وأكتشفُ، شيئاً فشيئاً، لحظاتِ وحركاتِ حياته.

أختَلِقُ حُبَيْبات البشرة، حرارةَ اليدين، النظرةَ، ولحظاتِ الصمت. أرى الهروب وأستشعر الاستسلام. في الليل، في اللحظة التي يعكس فيها الأرقُ وميضَ النهار، وينبشُ الصورَ الضائعة في كثافة الضوء، أسمعُ هذا الصوت. إنه قادم من بعيد؛ إنه قريب جداً. كيف أكسوه؟ إنه يصِل عارياً في أولى لحظات الليل، هذه. أعطيه وجهاً، ثم نظرةً. كثيراً ما أفقد أثـرَه.أحاول النوم. في هذه اللحظة تَرفَعُ الأغطيةَ، تدفـئني، توقِع المصباح وتمزِّق قماشَ الأشياء.

قالت لي في ليلةٍ جاءت متأخرةً، ليلةٍ سقطت في قَدَر الوحدة: «إذا لم يستطع أيٌّ شيء أن يمحو فينا الحلم، شوق الحب، فنحن على استعداد أن نحب بعضنا طويلاً دون أن نكشف عن أنفسنا أبداً.»

كانت هذه الجملة، التي قيلت بلهجة ساخرة إنما جدية، مثل هطول الرغبة. أصبح نفادُ صبري، وزناً، عبئاً ثقيلاً يجب التخلص منه. لأني، مع هذا الظهور، تعلمتُ أن أحب السـرَّ، وأن أنتظر.

تُقاس كثافةُ الحب بانعدام الصبر أو بأقصى الصبر على الانتظار. في مايحدثُ أو ما لا يحدث، أعرف أن أجمل شيء هو وقـتُ الانتظار. الحيـزُ المتوتر مثل خيطٍ يصِلُ بين شجرةٍ وبين ركيزة مزعزعة وبعيدة، تتراءى لنا دون أن نستطيع تطويقَها بحقّ. النقطة الأخرى ـ أفقاً كانت أم سوناتا ـ تحيط بها سحابة من الغيوم. نراقبها ولا نراها. نمسك بها دون أن ندري. أثناء الانتظار، يصبح للنظر كثير من الخيال وقليل من الدعابة. ينشط ويحط على ظلٍّ أو مكان خالٍ، مكانٍ سُكِنَ أو سيُسكن. هو في الحقيقة لا يحط، بل يبحث عن بيت من زجاج، طافٍ على سطح البحر. مايصعبُ إدراكه يكمن هنا، وراء الكلمات. في هذه التجربة الطويلة والسعيدة، أحاول مثلما حاول أدولف، أن «أبذل حياتي لأني قلّما أهتمّ.»

في الحب الأول، كما في الأخير، يساورني الشعور نفسه: من شدة الصدق ونفاد الصبر، أوشك أن أَجرح كلَّ شيء. لا أكفُّ عن التخيل وعن ردّ حائط الغم بيدي. ألامس الحد. في الانتظار، أُضيّع الوجهَ، صورةَ الوجه، ولا أعود أتعرفُ على الصوت الذي يرشدني. أمرٌ غريبٌ كم تبتعد عني صورةُ المرأة التي انتظرتُها طويلاً. لم أعد أعرف ملامح جسدها، لون عينيها، ومعنى نظرتها. أنا لم أنسَ، بل أضـعْتُ الحبيبات التي تؤلف الصورة. يقال إن هذا يعود لِثَمَلِ القلب، أو لِلَّيـلِ الذي يضخِّم أبعاد الوهم.

محكوماً بملازمة مقري، حيث أخترعُ الوقتَ، ما هو كائن وما يجب أن يكون، أخترع ما يجب أن يحصل، أشعر بنفسي حراً مثل «عصافير الشمس». سأقول لهذه المرأة، التي ربما تكون شابة في العشرين: «أنتظرك، وانتظارُكِ يعني حـبَّكِ؛ بدأت أشتاق إليك، حتى قبل أن ألتقي بك؛ وإني حيٌّ بفضل الانتظار، حتى لو كان قطعةً من

سماءٍ ممزقة، قماشاً سميكاً مرصعاً بالنجوم. أنت وميض يضيء لي ويُلْهِبُني. أن أحـضنَك يعني أن أنتظر وقتاً أقلّ، كلَّ مطلع قمر.»

لا يجوز وضعُ المشاعر في الكلمات، تلك السلال الجوفاء التي يمكن لبعضها أن يحل محل الآخر، والتي نقلتْ رمالَ الجنوب إلى الشمال. أخشى أنها لم تعدْ صدىً لنشيدِ حياة، بل صدىً لمجردِ صخبِ حنينٍ، حنينِ رجلٍ عجوزٍ يلهو كيلا يموت. يُراكِمُ الحجارةَ مثلما يراكم الأيام، كي ينطفئ في صمتِ انتظارٍ محاطٍ بالكبرياء. أيكون الليل هو الذي يتوارى والوجه المحبوب يظهر؟ تمتد أمام ناظري أرض بيضاء، ينيرها ضوءٌ قوي واصطناعي. البحر هو الذي أطْلَقها: امرأة، ماتزال طفلة، تسير نحوي. لا أتحرك. تتقدم ببطء. يتوارى كل شيء في داخلي: الرغبة والغم. أن تُشتَهى، أن تصطَفى من الوحدة لتكونَ حباً أول، قُدومُهُ هو شروعٌ بالموت. هذا هو اليأس المطلق. إنه يولد فيّ وأنا أتفاداه. لم أعد معلقاً إلى صوَري المهتزة. أنا خائف. لقد صرت ألعوبةً في اللعبة. تتسلّط علي فكرة الوحدة الأبدية والمفروضة. أطرد الصورة التي تقترب بيدي اليمنى. ينطفىء كل شيء. الضوء ونظري. أشعر بالبرد في هذه الغرفة الكريهة ذات الستة أمتار مربعة والواقعة على سطح بناء قديم في ساحة بورغوني في حي أغدال بالرباط. أنهض لأتبول. أخرج من جحري وأبحث عن ركن في السطح حيث نُشر غسيل للجيران. أنسى أن أبول. أفحص الملابس المغسولة: سروال قديم، بيجاما مخططة من الفانيلا، قميص بِياقة مهترئة، سروال أبيض بحالة جيدة. أنزعه وأبول فيه.

أعود إلى الغرفة وأحاول استعادة واحدة من الصور التي استدعيتها أول الليل. استعادتُها مستحيلة. أحاول النوم. أحس بالبرد. إنه الخوف من ألا أعرف الحبَّ أبداً. خَدَرٌ يُثقل صدري. سأقع ولن أجد ما أتعلق به. إنه العدم. الجسد يَفـرَغ. أشعر بحاجة لأن أعبر عن الوجه المنتَظر مع الانفعالات التي تداهمني في الظلمة.

أمسك الملاءة بين أسناني، أضع يديّ فوق بطني العاري وأغمض عيني.

جاءت شجرة هائلة، مثل طيرٍ عاش أكثر من اللازم. يدفعها ذراعان هزيلان لشابةٍ سمراء ولِدَت في إمنتانوت، جنوب البلاد. فم مغارةٍ حَفَرَها الزمن والجفاف في شجرة صبار. عيناها اللتان غَرَفتا من جرة عسلٍ، كبيرتان. يلتصق فمُها بذراعي. شفتاها التّامّتان، بلا غلظة أو استدقاقٍ، ترتجفان. قليل من اللعاب فوق نعاس جسدي. أَأنا من يَخرجُ من الطفولة أم تُراها هي؟ تأتي رسولةُ للسحب البعيدة وتقول لي باللغة البربرية: «حبي الأول يجب أن يكون حَيـيّاً مثل الخيانة»، ثم، وبعد صمت، ودون أن تدع شيئاً يُرى من جسدها، تضيف: «سيكون ببساطة نهدٍ تام».

7

الرجل الذي يكتب قصص حب

كان سيطيب له أن يقال عنه بعد موته: «هنا يرقد الرجل الذي أحب النساء». للأسف، أنه لم يكن فقط، الوحيد الذي طمح لفكرة هذا النقش، بل إن روائياً ومن بعده سينمائي، استعارا هذا العنوان لقصة خيالية، لم تترك بالأحرى أي أثر في نفسه. ماأراد أن يرويه، لم يكن يحدث لا في فرنسا ولا في أمريكا، بل في رأسه. وكانت الأحداث تتخذ المغرب، موطنَه الأصلي، وبالتحديد أكثر، الجنوبَ، إطاراً لها. لكنها في الظاهر لم تكن تحدث قط.

هكذا، فالرجل الذي كان يروي قصص حب، كان حزيناً حزناً مُكرِباً. كان ضئيلاً وشنيعاً. عبثاً أقنع نفسه بأن النساء يتأثرن بمعدن الكائن أكثر مما يتأثرن بمظهره الخارجي. كان يظل بمفرده أمام مرآته حين يغسل وجهه، آملاً أن الجمال الداخلي سوف ينبثق مثل ضوءٍ، من عزم الغسيل، ويصير قوةَ جَذْبٍ لا تقاوَم. في خجله، جانبٌ مَرَضيّ. فهو يحمرّ ويُتأتئ بمجرد وجوده أمام امرأةٍ تلْفُتُ انتباهه. حتى أنه اشترى كتاباً من تأليف عالم نفس أمريكي، بعنوان: *كيف تتغلب على خجلك*. تبيَّنَ له، بعد قراءته، أنه احتيال. إذ كان المؤلف ينصح بتناول المآكل حادة الطعم وشرب البيرة الصينية...

كان حزيناً، لكنه راغب بالوصول إلى حل، لهذا لم يكن تعِساً.

كان يعرف أن المظهر يحجب الفضيلة، وفي الوقت نفسه، يغدِر بها، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيعيش قصة حب كبيرة وجميلة. لكن كل طاقته في الوقت الحاضر، موضوعةٌ تحت تصرف الآخرين، وخصوصاً الأخريات اللواتي يحضرن إليه ليكتب قصصهن. فهو كاتب عمومي: «تخصصَ في العلم والهذيان والجنون وأهواء الحب». ترك مهنة التعليم حيث كان يشعر بالملل، واستقر في ركن من المقهى المركزي في سوكو شيكو بطنجة، استخدمَه مكتباً ومركزاً ثابتاً له، وأيضاً مَرقباً. كانت النساء يتحفَّظن في الدخول إلى المقهى. لذلك أوحى صاحب المقهى إليه أن يستقبل زبوناته عبر باب سري يؤدي إلى حارة مظلمة، وجعله يضع حاجزاً صينياً، اشتراه من سوق السلع القديمة في كازا باراتا. كان المالك يكنّ الصداقة والتعاطف لهذا الشاعر الذي لم يُفهم والذي يتمتع بموهبة خاصة في كتابة قصص حب الآخرين. وكان، من ناحية أخرى، أول زبون له. كانت قصته مسطحة بشكل مخيب ومحير، لكن كلمات الشاعر، جـمَلَهُ وصورَه، أعطَتْها بعداً جميلاً. في الحقيقة، هو لم يكن يكتبها فحسب، بل كان يُجَمِّلُها. وذلك هو سره.

تبدأ قصة عبد السلام بالشكل التالي:

في يوم من الأيام، كانت هناك غزالة بيضاء وديعة. عيناها كبيرتان سوداوان. شعرها طويل وغزير، تائهةٌ على شرفات الطفولة، كانت تحس بالضجر دون أن تجرؤ على البوح بحبها لأمير المقاهي عبد السلام، الرجل الذي كانت طيبتُهُ تُقرأ في ملامح وجهه، والذي كان يُخفي حبه لِكِنزا الجميلـةِ، حشمةً منه، أكثرمنها تحسباً. هو أيضاً كان يصعد إلى السطح للتشمس، يريد إيصال رسالةٍ لجميلته دون أن يعرف كيف. تزوجَ من ابنة عمها، الفلاحة السمينة، التي أعطته ثلاثة أطفال ولم تكن تكترث أبداً بما يفعله خارج المنزل. كانت كِنزا قد تزوجت من صيادٍ وأصبحت أفضل صديقةٍ للفلاحةِ،

لكي تُرتِّب لقاءاتها السرية بشكلٍ أفضل مع عبد السلام. فيلتقيان في كوخ صغير على السطح ويمارسان الحب، في حين كان ذاك يصطاد، وتلك تحضر طعام العشاء. دامَ هذا الوضعُ بضعة أشهر إلى اليوم الذي فاجَأَ فيه عبدُ السلام زوجتَه في المطبخ وهي تتلقى ذكَر الصياد من الخلف، بينما كانت القدور تغلي والجسدان مضمّخان بروائح التوابل الأفريقية والآسيوية، وروائح المطبخ الممتزجة برائحة السمك. لم تحدث مأساة، بل مجرد إغماءةٍ أصابت الفلاحة. لم يعرف إن كانت قد فقدت وعيَها بسبب الخوف أم أن ذلك الإغماء كانت نتيجة اقتران النشوة بالمفاجأة. استدعى عبد السلام كِنزا، وتبادل الرجلان عـقـدَيْ الزواج. في الواقع، لقد قاما بعد ذلك بوقت طويـلٍ، بالإجراء الذي يجعل الوضع شرعياً. فقد طلق كل منهما زوجته وتزوجا ثانيةً بعدها مباشرةً. لكن القصة لم تنتـهِ هنا. فقد بقي الصياد مغرماً بزوجته الأولى، وحاول مرات عديدة، إعادة الارتباط بها. أصبح عبد السلام شديد الغيرة. فراح يمضي وقته في مراقبة زوجته وملاحقة الصياد، إلى أن خطرت له فكرة جيدة: عدم مفارقة الصياد أبداً: مرافقته إلى البحر، مرافقته إلى الحمام، شَغْلـهُ طوال الوقت. أهملَ مقهاه، إلا أنه جَرّ غريمَه إلى قصة تهريب دخانٍ قاتمة. سُجن الصياد، أما عبد السلام، فقد اضطر للاهتمام بالبيتين. كان خائفاً من ردة فعل الصياد عند خروجه من السجن. لهذا أراد رؤيةَ قصتِه مكتوبةً، ربما يعطيها لأحد سحرةِ الجنوب، كي يعيد كتابتها بحبر السبيدج، الذي يتمتع بقدرة التأثير على مجرى الأحداث...

كُتبت القصة باللغة العربية وأُعطيت للشيخ ابراهيم، الذي يسكن في مقبرة إمنتانوت . ورغم المبلغ المعتبر من المال الذي عرضه عليه عبد السلام، رفض التدخل في هذه القضية التي وجَدَها لا أخلاقية بامتياز. أمعن في الإلحاح، لكن الشيخ أمرهُ بالخروج من

قبـوِه، ثم ناداه وطلب منه العودة بصحبة المرأتين. هذا ما فعله عبد السلام بعد شهر. استقبل الشيخُ كِنزا أولاً، واختلى بها حوالى ساعة كاملة. بالطبعِ، ظن الزوجُ أن الشيخ يتحسس زوجته معايناً إياها. إلا أنه، وكما عند الطبيب، لم يجرؤ أن يدفع الباب ليرى مايحدث فعلاً. خرجت كِنزا مضطربة، وفي الوقت نفسه منشرحة. تيقَّن عبد السلام من أنها تلقت للتو ذَكَرَ الشيخ. لم يقل شيئاً ودفع بالفلاحة السمينة إلى القبو. تلـقَّت بدورها زيارة الذكر. أغمي عليها كالعادة. نادى الشيخُ عبدَ السلام وقال له: «ليس هناك امرأة تستطيع مقاومة عضوٍ كامل الصفات». ستحتفظ بالمرأتين لك وحدك. الصياد لن يخرج من السجن. لقد أُغرِمَ حتى الجنون بأحد الشبان الجانحين الذي ارتكب جريمة قتلٍ وحكم عليه بالسجن المؤبد. وسيفعل المستحيل كي يبقى إلى جانب عشيـقِهِ. الآن اذهب ولا تعد لإزعاجي في شأنٍ بهذه التفاهة.»

عاد الثلاثي إلى طنجة. ومنذ ذلك الوقت، يرعى عبد السلام البيتين، ويـعَمِّرُ السريرين.

*

القصة الثانية هي قصة الرجل الذي يبكي: عبدُ الكريم تاجرُ كَيف، ولد بقرية في جوار الحسيما. تزوج من امرأة من قريته تدعى خديجة. في اليوم الذي دخلت فيه هذه المرأة إلى بيته، أقسم أمام والدته أنها لن تخرج من البيت إلا بصحبة أمه أو بصحبته هو. نُذِرت خديجة لأعمال البيت وإنجاب الأطفال. تدبَّرَ عبد الكريم أمره كي يبني داخل بيته، حماماً عربياً. كان يقفل الباب كلما سافر. أودَعَ نسخة من المفاتيح لدى أمه التي كانت تقوم بنفسها باصطحاب الأطفال إلى مدرسة القرآن.

أصيبت خديجة يوماً، بحمى قوية جداً. راحت تتقيأ وترتعش حين تنهض، بل ويغمى عليها. أعطتها الأم نوعاً من المساحيق كي

تبتلعها، الأمر الذي فاقم حالتها. بعد يومين قرر عبد الكريم إحضار طبيب. بحث في كل مكان عن طبيبةٍ، لأن مسألة أن تقع عينُ رجلٍ على جسد زوجته أمر غير وارد. لم يجد امرأة طبيبة، بل ممرضة فقط، ورفضت أن تصحبه. عاد إلى البيت خائباً وطلب من أمه أن تعطي خديجة مساحيق وأعشاباً أخرى، نصحت بها قابلة قانونية كفيفة. راحت خديجة تتقيأ دماً. اقتنعت الأم أن هذا دليل خلاص: ذاك الدم الأسود هو الشر والعين الحاسدة اللذان تعرضت خديجة المسكينة لفعلهما من محيطها.

أصبحت حالة المريضة ميؤوساً منها. استُدعي والدها، الذي استشاط غضباً، وأحضر طبيباً. عندما دخل الشاب الغرفة وطلب أن يفحص المرأة. قال له عبد الكريم: «أنا أعرف ممّ تشكو. ما عليك إلا أن تستفهم مني وتصف لها الأدوية.» عدَل الطبيب عن فحصها وهو يعرف جيداً عقلية هؤلاء الناس، وطلب أن يعطيها حقنة. سأله الزوج عن الموضع الذي يريد حقن امرأته فيه. قال له الطبيب: «في قفاها». «إطلاقاً!» . دفع الأب عبد الكريم بعيداً. تناول مقصاً، وأحدَ ثَ في الملاءة فتحةً على مستوى الجهة اليسرى من المؤخرة، وأشار إلى الطبيب أن يقوم بعمله. لم يكد الطبيب يجهّز الحقنة، حتى أسلمت خديجة الروح في تنهيدة أخيرة.

منذ ذلك الوقت، لم يفعل عبد الكريم شيئاً سوى البكاء، نادماً على جهله وغبائه. لم يُبدِ أية مقاومة، وتخلى عن الزراعة وعن تجارة الكيف. لم يعد يرتاد المساجد وراح يبكي في الليل وفي النهار، ويفكر أنه إذا كتب قصته، وإذا عممها، فإنه سوف يُجَنِّب غيره هذا النوع من المآسي. أراد أن يذهب إلى التلفزيون ليروي قصته ويعرض صورة زوجته وأطفاله. لم يكن يَنـشُد التِماس العفو لنفسه، بل على الأقل، الكفَّ عن سكب الدموع على ماضيه.

كُتبت القصة، وأرفِقت برسوم توضيحية نفذها رسام سريالي، يُمضي حياته بين مستشفى الأمراض النفسية وبين الحمّام. انتشرت

القصة لبعض الوقت، على شكل كتيّبٍ، راح عبد الكريم يبيعه للمارة. كان يصيح في الساحات العامة التي يقصدها رواة الحكايا: «هذه قصتي، هذه حياتي. اقرأوا قصة الرجل الذي يبكي، هذا سيجنبكم ارتكاب الحماقات. قصتي لقاء عشرة دراهم، قصتي لقاء قليل من الخبز والزيتون...»

*

المرأة التي دخلت المقهى وتوجهت دون تردد إلى طاولة الكاتب العمومي، كانت ترتدي جلابية زرقاء وكان وجهها مكشوفاً. عيناها مكحلتان، وشفتاها المكتنزتان مصبوغتان بأحمر شفاهٍ يدوي الصنع. واضحٌ أنها لم تبلغ الثلاثين من عمرها. قالت فور جلوسها:

ـ سيدي أنا من طرف كِنزا. شهرتك هي شهرة رجل شهم ونبيه. سأكون سعيدةً إن استطعتَ أن تعكس الوضع...

استمع إليها لكنه لم يعرف ما الذي عليه أن يعكسه. قال لها بحركة من رأسه إنه لم يفهم قصدها. أخرجت من حقيبة يدها فردة حذاءِ رجلٍ ووضعتها على الطاولة مقلوبةً، ومدت سبابتها باتجاه نعل الحذاء. فهِم قصدها، إلا أنه وجد متعة ماكرة في استجرار الشروحات منها. تناولت الحذاء برقة، داعبتهُ كما لو أنه جزء من جسد إنسان.

دون أن يتكلم عن معنى هذا الرمز، قال لها إن مقدرته لاتصل حد التأثير في الحياة الحميمية لزوجين متحابين. دلّها على فقيه شهير بمعرفته بطرقٍ كفيلةٍ بردع الأزواج عن المضي في إتيان زوجاتهم من الخلف فقط. قالت له: «أعرف كل هذا. جرّبتُه ولم أحصد نتيجة. لم يستطع الفقيه سيدي الحسين أن يعيد وضع الحذاء بشكل سوي. لذلك فكرت أني إذا كتبت قصتي وهددته بنشرها، سوف يكف عن ممارسته. كثيراً ما تسألني أمي لمَ لم أحمل. بالطبع لن

أقول لها إن زوجي لا يحب ممارسة الجنس إلا من الخلف! كل مساء أعدّ نفسي لاستقباله؛ أغتسل وأتعطر؛ أنظف جسمي من الشعر؛ أضطجع على ظهري وأنتظر. أول ما يفعله، هو أنه يقلبني ويلجني من الفتحة الأخرى. أصرخ في أغلب الأحيان، فيعتقد أن هذا دليل استمتاع. وكلما هممتُ أن أكلمه في الأمر، ينهض قائلاً إن هذا حديث عاهرات. مازلت عذراء، ولا أريد أن أموت دون أن أعرف تلك المتعة الأخرى».

شعر برغبة مخلصة أن يقترح عليها مغامرة، فقط بما يكفي لجعلها تتذوق تلك المتعة الأخرى، لكنه لم يجرؤ. مع ذلك شعَرَ من الطريقة التي تبوح له بها، بما في نفسها، بطُعمٍ يهدف لإغرائه، مما جعله يحمرّ. أعاد الحذاء إلى وضعه الصحيح، مداعباً إياه مثلما فعلت هي في البداية. قال لها إن هذا النوع من الأشياء، ليس من اختصاصه وإنه آسف لعدم تمكّنه من مساعدتها. مالت نحوه وهمست في أذنه، وهي تنهض استعداداً للذهاب، بهذه الكلمات: «الحب ثعبان يزحف بين الفخذين». أضحكه القول وذكّره خاصةً بمراهقته، حين كان يرسم على جدرانِ شارعه، نساءً بأثداء عارمة وثعابين بين الفخذين. كما صوّر رجلاً على شكل ذكر منتصب يمشي باتجاه امرأةٍ على شكل فرج. كان يحب هذه البذاءات ويغلق على نفسه في المرحاض كي يداعب نفسه وهو يفكر بها.

لاحظ أن المرأة تشبه واحدة من تلك الصورالتي كان يخطها بالطباشير على الجدران. وضع يده على خصرها، جعلها تنزلق داخل جيب الجلابية المفتوح، واكتشف أنها لاتلبس سروالاً. امتلأت يده بأنوثتها المكتنزة. قالت له: «أنت تعرف الآن، أي شيء يفوت ذلك الزوج الأحمق الذي هو زوجي!» . لم تكن ممارسة الحب أمراً وارداً حيث هما. أعطاها موعداً في شقته الضئيلة بشارع «العشاق»، في سوق البقر، وطلب منها التزام السرّية. ذهبت لزيارته في الصباح

الباكر، بعد أن أودعت أولاد أختها في المدرسة. كانت تلك ذريعة جيدة من أجل الخروج. انزلقت في سريره واتخذت في الحال وضعية استقبال ذكر الكاتب. كانت مستلقية على ظهرها، فخذاها مباعَدان ويداها متشوقتان لشدّ جسم الرجل الذي مازال نائماً، إليها. قال لها:

ـ أنت عذراء؟

ـ لا، أجابت. منذ زمن بعيد، تقوم أصابعي بعمل زوجي!

وصل الكاتب إلى حالة الانتصاب بمشقة. كان متأثراً وفي الوقت نفسه قلقاً من جرأة هذه المرأة. راحت تداعبه ثم تمصه. لفتت نظره إلى أن العاهرات بشكل خاص، هن من يفعلن ذلك. ماأن حصل الانتصاب حتى غرزت العضو فيها بقوةٍ أخافت الرجل المسكين. إنها امرأة خبيرة ولم تخـفِ ذلك. قالت له قبل أن تذهب: «لم أعد بحاجة لرؤية الفقيه أو حتى القاضي. لقد ساعدتني في العثور على الحل. الآن يمكن إبقاء الحذاء مقلوباً على قفاه، لأنك أنت ستأخذني دائماً من الأمام!»

شوّشته هذه القصة. كانت المرأة تفعل المستحيل كي تأتي إليه. هي تجازف، وهو يخشى أن يهبط عليه الزوج فجأةً أحد الأيام، ومعه سكين ليقطع له عضوه. تلك كانت خشيته. ما السبيل لإيقاف هذه العلاقة؟ ما السبيل لاستئناف حياة أكثر هدوءاً؟ كيف يُخرج هذه المرأة من حياته؟هل كان يحبها على الأقل؟ لا، لم يكن. بل يستسلم لرغباته ونزواته.كان يستفيد منها قليلاً، لكنه يجدها مزعجة قليلاً وشرهة كثيراً. كانت تنهكه وتعثر كل مرة على طريقة جديدة لممارسة الجنس. الطريقة الوحيدة للتخلص من هذه القصة إذن، هي كتابتها، بالتفصيل، وحتى تعميمها. كان مقتنعاً أن الكتابة هي الشكل الأبرع والأنبل للتعزيم وطرد الأرواح الشريرة. الكتابة من أجل التدمير، الكتابة من أجل الإزالة. تسمية الأشياء من أجل

إبعادها. هذا هو السر. حبس نفسه في غرفة بمنزل صديقه عبد السلام، وبدأ يحرر قصة المرأة صاحبة الحذاء المقلوب. كان بوسعه أن يسميها «المرأة التي لم تكن تحب أن تلاط» ، لكنه وجد هذا العنوان مباشراً إلى حدٍ ما.

ما أن انتهى من كتابة قصة صباحاته (لم تكن المرأة تأتي إلا في الصباح)، حتى شعر أنه تحرر وتخفف، بل ابتعد عن كل ما حصل له منذ بضعة أشهر. حين عادت المرأة لرؤيته صباح أحد الأيام، تركها تتصرف على هواها، نزع ثيابه، وبدلاً من أن يدخلها من الأمام، قلبهاوتظاهر أنه يريد أن يلوطها. عندها ردّته، نهضت، وذعرت من رؤية صورة زوجها ترتسم على وجه الكاتب. صرخت وفرت هاربة.

منذ ذلك الوقت، أصبح الكاتب رجلاً هادئاً. استمر في الاستماع لهؤلاء وأولئك، وكتابة قصصهم ورسائلهم، وبالدرجة الأولى، في اختلاق عالم رائع بوساطة الكلمات والصور. هدأ لكنه ظل غير سعيد. هو يعرف أنه يخلط غالباً مشاعر الحب بالرغبات الجنسية. يعرف أنه لا يرى في الحب سوى المآثر الجسدية وإمكانية إرواء عطش الجنس والرغبة. ويتساءل إن لم تكن التربية التقليدية أيضاً، تخلط الجنس بالعاطفة. يذكر أنه قرأ خفيةً، المؤلَّف الخاص بعلم الجنس، بالنسبة للشبان المسلمين، كتاب الشيخ النفزاوي: «الروض العاطر»، وهو النص الذي يعطي فيه الشيخ، باسم الورع واحترام تعاليم الإسلام، «دروساً في الفسق». هذا الكتاب، الذي وضعه رجل ضليع في الفقه، كان موجهاً للفتيان وعلى وجه الحصر لهم. حاول أن يقيم وزناً لهذه التعاليم التي تغذى عليها، كلما وجد نفسه أمام امرأة. كان ظل الشيخ يتوسط بين المرأة وبينه.

بينما هو غارق في هذه الأفكار، ظهرت المرأة ذات الحذاء المقلوب. نهض وطلب منها أن تتركه. قالت له إنها لم تأت لأجل

الجنس، بل لأجل الحب. مدفوعة بالحب الذي تكنه هي له على الأقل. دعاها للجلوس وراح يتحدث عن الهواء الشرقي. أوقفته وقالت له، دون أن تفقد برود أعصابها: «أ تعرف أن المرأة لا تمارس الجنس إلا إذا أحبت؟ أتعتقد أنها تعطي نفسها لمجرد شعورها بالرغبة؟ اعلم أنه لا توجد رغبة دون عاطفة، وأن الحب الجسدي لا يكون له معنى إلا إذا كان استجابة للعواطف والمشاعر ومرافقاً لها. أعرف أنكم معشر الرجال، عبيد لرغباتكم. تستطيعون أن تقلبوا المرأة كَبّاً، في أي وقت وأي مكان. أنا أتكلم عن الحب... يجب أن تعيد كتابة قصتنا إذا أردتها أن تنتهي، فهي، بالطريقة التي رويتها بها، لا تنسجم مع الحقيقة. الحقيقة هي أني وقعت في حبك وأتساءل من جهة أخرى، لماذا؟ فأنت لست حتى بالجميل ولست ظريفاً أيضاً. كل اللغز يكمن هنا.»

بقيا صامتين لحظة ثم استأنفت أسئلتها: «قل لي ما السبب في الغياب شبه التام للانسجام بين الرجل والمرأة عندنا؟ لماذا يمتنع الرجل عن القيام بأية لمسة حنان لزوجته، خاصة بين آخرين؟ هل يتحدث الشيخ النفزاوي عن التوازن والانسجام في مؤلفه؟» .

كان يصعب عليه الإجابة عن كل هذه الأسئلة. إنه يحب قصص الحب، دون أن يعيشها بالضرورة. وإن حدث وخلط الحب بالجنس، فليس الذنب ذنبه. قرر أن يعيد قراءة *ألف ليلة وليلة*، *كليلة ودمنة*، *روميو وجولييت*، *قيس وليلى*. أراد أن يعرف كيف تكتب قصص الحب الحقيقية. لم يعد يريد ذكر علاقة الأجساد، بل مشاعر هذه الأجساد وانفعالاتها فقط. كانت المرأة على حق. لا يجوز الإفراط في كشف حميمية القصص. لكن هل سيتخلص من حميمية قصته معها؟ لم يكن بوسعه معرفة ذلك قبل أن يكتبها.

سافر بعيداً، بعيداً جداً عن طنجة. توقف في مراكش وعرض مشكلته على أحد رواة القصص. روى قصته أمام جمهورٍ، جمّدهُ

الذهول. اضطر أن يختلق وقائع أخرى، ويخلق قليلاً من الغموض، وجعَلَ من الرجل «مهووساً بالحب». كان كلما تكلم عن الحب فقدَ زمام الأمور. عرف أن الطريقة الوحيدة للتخلص من ذلك، هي تغيير كل شيء واختلاق كل شيء. لم يعد يعبأ بالحقيقة. يقول: «الحقيقة دائرية مثل هذه الساحة، تدور في أحلامٍ وأذهانِ أولئك الذين يسعون لالتقاطها، نساءً ورجالاً.» لم يكن أي شيء بسيطاً. وكل شيء يكمن في السر. وعلى الجمهور أن ينتزع هذا السر من الكلمات التي تدور حول الساحة، أو من جلد ذاك الذي جازف وراح يروي قصة حبٍ وجنونٍ وجراح.

حين عاد بعد أشهر، إلى طنجة واستقر في مؤخرة مقهى عبد السلام، شعر أنه تغير وأن عليه البحث عن مهنة أخرى. ليست روايةُ قصصِ الآخرين بالأمر الصعب، وهو يمتلك المادة الأولية ويعرف كيف يوظفها حسب الأصول. كان يقارن نفسه بمهندس معماري أو مزخرِف. إلا أن اختراع القصص وخلق الأشخاص والمواقف والتوفيق بينها بحيث تتشكل دراما أو كوميديا، أمر أكثر تعقيداً ويتطلب منه الكثير من العمل والخيال. تمنى لو يستمد من حياته الخاصة عناصر هذه القصص. غيرأن حياته لم يكن فيها الشيء الكثير الذي يمكن استعارته منها. بقيت له الأحلام التي أهملها. ومارس الحيلة: كانت أحلامه متعددة ومتنوعة، وأحياناً قوية إلى درجة أنه لايبقى عليه سوى الانحناء والتقاط قصص الحب. كان خجلُه المرضيّ وخوفه من المجازفة والمغامرة، بحجم ولعه بالنساء اللواتي يتخيلهن وهو بين النوم واليقظة. كان يكفيه أن يرى فتاة جميلة تمر في الشارع، حتى يعطيها اسماً، صوتاً وطباعاً، ثم يستدعي صورتها حين يذهب إلى السرير كي يعقد معها نقاشاً ينتهي بتلوث الأغطية وصرخة مكتومة. يطردها بحركة من يده، ويحاول تركيز اهتمامه على شيء آخر. عموماً لم تكن تأتيه أية صورة أخرى. كان يغفو وهو يرغي ويزبد من الظلم الذي يحيط

بوضعه، ويعِد نفسه بالكف عن إثارة نفسه في حضرة إحدى الصور. كان مقتنعاً أنه إذا لم يلمسها ولم يلمس نفسه، فسوف تمضي الليل بطوله بصحبته.

منذ ذلك صارت لياليه هادئة ولطيفة. كان يُجري أثناءها، لقاءات رائعة في معظم الأحيان. وفي الصباح عندما يستيقظ، وحيداً ومرّاً، كان يشعر ببعض الحزن وبعض الهجر. يجلس بعد تناول القهوة، إلى مائدته ويكتب آخر مغامرات «الرجل الذي يخترع قصص حب». يراوده شعور من عاش المغامرة سابقاً، وكل ما يفعله هو التذكر، وإن كانت الكلمات تُصرّ أن تبالغ في كل شيء، وحتى أن تكذب.

8

فتيات تطوان

1) طبوغرافية الوحدة.

تتمتع فتيات تطوان ببشرة بيضاء ناعمة وعيون سوداء ونظرة محتشمة وحركة محسوبة وكلام نادر.

أن تعيش في تطوان، يعني أن تقبل شراكة: شراكة مع هدوء بحر مجاور، وأن تحترم ما هو دائم ويجب أن يدوم؛ شراكة مع أوهام المكتوب؛ أن تقبل الاعتدال، والاقتصاد في الكلام وفي الفعل.

تَعبر الحياةُ سكانَ هذه المدينةِ، بنعومةٍ وهمسٍ عبور نبع. الحدث هو المفترق. الأجساد البيضاء، الأجساد الواهية تجتاز الحدث، على طريقة مرور سحابة من الدخان. غيمةٌ صغيرة زرقاء تظل عالقة في الأشجار. هذا كل شيء. الهواء سوف يهب ويأخذ الغيمة الصغيرة الزرقاء. الضجيج يتحلل عند حدود المدينة، يَبطل مفعوله. البذخ والترف يُطردان إلى أماكن أخرى. كذلك فقد نصّ مرسوم أن كل عنف يعتبر غريباً عن طبوغرافيا المدينة. فالشوارع مرسومة بحيث تُفسِدُ أو على الأقل تُروِّض مؤشرات العنف. الجدران التي تُبـيَّض بالكلس، تحتفظ في إشراقها بشيء من زرقة السماء. زرقة تنساب في البياض، مثلما تتغلغل وشوشة أمواج مارتيل

بنعومةٍ في أحلام الأطفال الذين ينتظرون الصيف. يقولون هذا في كل مكان: تمتلك الجبال أنسجة القدر؛ ما يحدثُ مكتوبٌ على منحدراتها العارية. أولئك الذين يتسلقونها، لايعرفون القراءة بين الأحجار. الهوى نادر مثل الجنون. لا أحد يسميهما. الأجساد تُفلَت، تنزلق بين العنف الذي يُكبَت، وبين الرغبة المخبأة. الهواء سوف يهب ليلاً على الأرجح. تُصفّي المدينة، ويعاد طلاء الشوارع بالكلس. أحجار الجبال تصغي للسكينة، والغيوم تهجر زرقتَها وتمضي لتهطل في مكان أبعد فوق البحر.

يتكلمون عن يمامة بيضاء.

يرسمون اليمامة التي تلامس الغيمة الصغيرة الزرقاء. إنه الضياء، المؤشر الشفاف على اللذةِ التي تُوَشوَش. بعض الأوراق التي أفلتت من السماء، تبحث عن جسد، عن قبر. أيدٍ عارية، صوت عار. إنها هجرة الماء العذب فوق أجسادٍ طُلِيَت بالتراب.

تصمتُ الإشاعة، فتخرج النساء. البحر محفوظٌ في النظر، والخطى ترسم عريَ الأرداف. النجم الذي لاسيطرة عليه، يسيل باتجاه سرير النهر الجاف. الخطأ هو سقوط النحلة في جسم من العسل: تعبر النساء أروقة العزلة الكبيرة على رؤوس الأصابع. عين الرجال الجالسين في المقهى، تداعب مؤخراتهن، وتحكم عليها. والشمس تعكس لنا هذه الوجوه الصافية على شكل أحلام صامتة. يقال إن هذه الأجساد شُكِّلت من التراب والكلمة، وإلى التراب تعود. إنها في الوقت الحاضر، تغني وتطوق بياض الغياب. تُبيِّت في داخلها الوعد غير الأكيد، مفضّلةً حلاوة المداعبة. صحيح أن المداعبة عابرة. الرجل يغيب، تُغَيّبُه الأعمال المعتادة.

الجسد يَتَيَبّس، الجسد يتعطّل.

الحب، أن تتعلم أن تحب وحدتَك. أن تعرف كيف تنسحب إلى صخرةٍ تصونُ الحنان. أن تُبْطل مفعولَ التبعية، لكي تصبح الحيازةُ شاشةً تعكس الشفافية. الحب احتفاء دائم باللقاء بين وحدتين، جَعْلُ

تجلياتِهما اليومية، وانفجارِهما المحتمل في الموتِ، في الشعرِ، عيداً. أن تعرف أن النجوم والأمواج قد هجرتْكَ؛ أن تعيش الحب والصداقةَ، بحنانٍ شغوف. نساء تطوان لايعرفن، للأسف، سوى حالةَ نزع الحيازة. يضيع كيانُهن الأنثوي في الصورة التي تَعَمَّد الرجلُ أن يصنعَها لهن، ويَتْـلَفْنَ في النسيان، وقد انـتُزِعَ منهن تَفَرُّدُهن. هذا هو السبب الذي يدفع نساء تطوان للانسحاب دون ضجيج، دون تحطيم أي شيءٍ، إلى وحداتهن. يتحول الأزواجُ إلى مادةٍ تـتَفـتَّت في المقاهي أو الأندية الخاصة بالرجال (الكازينوهات الأسبانية)، حيث ينزلون إلى القبو ليسكروا دون أن يراهم أحد. يتحدثون بلا جدوى؛ ثم يتكومون مثل أكياس من الرمل الأبيض قرب طاولاتهم. عند المساء، يلتقطهم نادل المقهى في قُفَفٍ صغيرة ويمضي بهم حتى أبواب منازلهم. تكون النساء نائمات. يَلُذن بالغياب لكي يحلمن.

2) وُلِدَت من الـزَبَد.

إنها ملكة مستَغْلمة. حُبِست في قفصٍ من الكريستال من قِبَل الرجل، زوجها. في الليل تخرق الكريستال وتهرع إلى ساحة الفدان الكبيرة، المضاءة لهذه المناسبة، بكشافات قوية. جسدُها الممددُ ينتظر. سيكون عريُها من نصيب الرجل أو الحيوان الذي سيتمكن من إرواء غُلمَتِها. الرجال السكارى الذين يخرجون من قبو «الكازينو»، يحترقون عند الاقتراب من الجسد. يمضون هاربين، وقد تعرفوا على اللعنة المهـدِّدة. الجسد الذي عانى من غياب الحب، تحوَّلَ إلى جمرةٍ هائلة. لم تعد الملكة تنتظر في الفدان. اختطفها حيوان لم تُعرف هويته، قادمٌ حتماً من الريف. ويعيشان سعيدين في مغارة.

هي امرأة ولدت من الـزَّبد. ليست حورية تماماً، وتنام على الشاطئ. تهدهِدُها وشوشةُ الأفكار. الرجل العابر، ريفي جبلي. بشَرتُه سمراء بلونِ تراب البلد. يتوقف. يجثو أمام الجسد الذي يحلم.

ودون أن يتكلم، يمـرُّ بيديه المنحوتـتـيـن من صخر جبل دِرسة، على صدر المرأة الأبيض والمتماسك. تستيقظ. يقَبِّل الإبطين ويـتـنـشّق بعمق عطر الورد المنتشر على الجسد. ببعض الاستعجال، يمزق الرجل سروال المرأة الفضفاض والأبيض. يرفع جلابيته المصنوعة من الصوف الكستنائي الغامق، يمسك طرفها بأسنانه، وبصمتٍ، يلج المرأة التي لا تقول شيئاً. ولأنها أكثر سعادة من أن تتكلم، تنظر إلى السماء.

3) الجسد في المرآة

قيل لها إن الفتاة يجب أن تظل عذراء حتى يصل زوجها. قيل لها أيضاً، أن تحذر من النظرات الحنونة والكلمات العذبة. قيل لها ألا تنظر أبداً في عيني ولد، ناهيك عن الكلام معه. أُعـطِيَ لها باكراً، رسمٌ للعالم: الخير من جهة والشر من جهة أخرى. عليها أن تبقى في منطقة الخير، حيث تكون في مأمنٍ من الرذيلة والعار. بيتها، وأهلها، وعائلتها يشكلون دوماً، جزءاً من هذه المنطقة. لهذا السبب، هم على مايرام، وكل المدينة تحترمهم. من الجهة الأخرى، هناك الشر، والآخرون. الجنس، السيجارة، الكحول، المتعة... إنه الليل، غياب النجوم، حيث لا يعرفون الله ولا نـبـيَّه محمد، وتفقد العائلات شرفها، وتحيا لعنة الله ولعنة البشر.

تقبع وراء النافذة وتشاهد الناس يمرون. ومن وقت لآخر، يعبر الشارع ثنائي، يمسك أحدهما بيد الآخر، وأحياناً تسير المرأة وراء الرجل. يمر أولاد متعطّلون، متوحدون. يرفع بعضهم عينيه إلى الشرفة. لكنهم لا يلمحون المرأة. عندما يحل الليل، تنزوي الفتاة في الحمام. تتعرى، تتأمل جسدها طويلاً في المرآة. تستدير وتتدوّر. تفرد شعرها. تـتـزوق وتـتـفرج على نفسها. تغمض عينيها وتدع يدَها تنزلق بنعومة من كتفها إلى عانتها. المداعبة الحلوة والمخجلة. ومن بعدها المرارة والخيبة، أو ببساطة، الخجل

والشعور بالذنب. تمسح الفتاة المكياج عن وجهها. تعود لارتداء ملابسها. تُلَملِم عزلَتَها في راحة يدها، وتلقي بنفسها في أحد الأسرّةِ، كي تستعيد ظلالَها.

تعود إلى الشرفة، وتختار الرجل الذي سيمر بيده فوق جسدها في المرآة. هذا الجسد يمضي وقته في الانتظار ويستهلك نفسه في مرآةٍ لا يتمكّن من تحطيمها. إلى يومٍ يرسلُ فيه رجلٌ شغّيلٌ وراغبٌ بتأسيس بيتٍ، أبويه، كي يطلب الفتاةً للزواج. إنه لا يعرفها بعد، أو لا يعرفها معرفة جيدة، على الأقل. اضطروا أن يكلموه عنها ويمدحوا له مزاياها، وأعطوه، كي يراها، إحداثياتها، أي، الطريق الذي تسلكه يومياً، والأوقات التي تتنقل فيها لوحدها... رآها للمرة الأولى، ساعة الخروج من المدرسة. تظاهَرَ من خلف مقوده، بأنه ينتظر أحداً ما. بالكاد رآها.

فتاة مؤدبة، خجولة، لا تتبع الموضة ولا السياسة. إنها مايحتاج إليه بالضبط. باختصار، لقد تم اختياره. ستكون الفتاة ربة بيت فاضلة وبسيطة. لا حاجة للشهادة. ستعتني ببيتها. لن تحتاج للعمل في دائرة، أو للاحتكاك برجال آخرين. وفي شهرالعسل سيسافران إلى أسبانيا. أعطت أسرةُ الفتاة نفسَها مهلـةً للتفكير. تستطيع الفتاة أن ترفض، متذرعةً برغبتها في إتمام دراستها.

الخطبة: زمن الحب، القبل المسروقة، النزهات بالسيارة والعودة إلى البيت قبل العشاء. إنه الحب كما في قصةٍ من القصص العاطفية المصورة.

الإعداد للزواج: هدايا للمناسبة. خاتم أو سوار. الزواج عيدٌ تبكي فيه الأمُ القطيعةَ. انـتُزعت منها ابـنـتُها، التي ستغادرها إلى سرير آخر، إلى عزلة أخرى.

تفقد الفتاة عذريتها. يُهَنَّأ الزوج على ذلك.

تأسست الأسرة، وتنتظر الأطفال. ترعى المرأة بيتها. تعد

الطعام. تقوم خادمة صغيرة ليست غالية الثمن (جاءت من الريف)، بالأعمال الصعبة، كالغسيل والتنظيف. يأكل الزوج، يتجشأ وينام. عندما يخرج من عمله مساءً، يلتقي ثانية برفاقه (الذين هجرهم قليلاً أثناء الخطبة) في المقهى. يقرأ الصحيفة ويناقش في أمور الرياضة أو أخلاق الآخرين. يذهب للعشاء ثم يخرج، في كثير من الأحيان، من جديد كي يلعب الورق أو كي يشرب بضع زجاجات من البيرة مع رفاق آخرين. عندما يعود في الليل إلى بيته، يوقظ زوجته ويسكب بين فخذيها بضع قطرات من المني. المرأة تحلم وتزحم سريرها بالصور الملونة.

الحب، لقد انتهى. إنه فقط لوقت الخطبة. الحب، تلك العزلة.

4) نصف برتقالة.

تعود للجلوس في الشرفة وتختار الرجل الذي سيمر بيده على جسدها في المرآة... لكن هذا الجسد لن يعود لإضناء نفسه في الانتظار وفي الوحدة؛ بل سيلمس جسداً آخر في إطار الصداقة ودون مرآة، جسد امرأة.

في المدرسة، لا يجوز إطلاقاً خلط الصبيان مع البنات. لكل جنس باحة خاصة لوقت الاستراحة. يمكنهم عند اللزوم اللقاء في إحدى صالات المكتبة، تبادل بعض النظرات، ثم يمضي كل في طريقه. المقاهي؟ إنها أمكنة مخصصة للرجال. والنساء القليلات اللواتي يشاهَدن، أحياناً، فيها، هن إما أجنبيات أو عاهرات. حتى الجوامع محجوزة للرجال. تستطيع النساء الذهاب إليها، ولكن ليس لهن الحق بالصلاة (السجود) أمام صفٍ من الرجال. تخيلوا الفضيحة التي يمكن أن تحدث إذا سجدت امرأة، فأيقظت الرغبة في صفٍ كامل من رجالٍ، هم في غمرة الصلاة! هذا شيء غير جاد! شاطئ البحر؟ إنه مكان يذهبن إليه مع الأسرة بكاملها.

لم تعد المرأة تحلم.

تعرفتا إلى بعضهما في الحمام. الظلام الذي يخيم في هذا المكان يعفي الأجساد من سَتـرِ عريِها.

قدمت لها نصف برتقالة. أعطتها بالمقابل قليلاً من مائها الساخن. اقترحت عليها أن تضع لها الطِّيب على ظهرها. غرفت بالمقابل ملء يديها من الحنة المعطرة وقالت لها: «خذي إنها من مكة.»

أحست بقشعريرة تسري في كل أنحاء جسدها عندما كانت أصابع الطِّيبِ تنزلق ببطء فوق ظهرها. عندما انتهت، قالت لها الأخرى: «هذه المرة. دَوْري. سأحـنّي لك شعرك.»

كان لكليهما شعر رائع الجمال. كانت الحنة تسيل إلى أسفل ظهرها وهي تسرح لها شعرها.

وضعت كل منهما الصابون على جسد الأخرى. وراحت اليد التي لا تلبس كيس حمامٍ، والتي تحتفظ بقطعة صابون في راحتها، تمـرّ فوق الكتفين، تحتَ الإبطين، بين النهدين، وبين الفخذين.

عندما خرجتا من الحمام، جلستا في قاعة الاسترخاء (التي هي أيضاً قاعة انتظار)، وشربتا عصير ليمون مثلجاً.

كتبت لها أبياتاً قصيرة من الشعر، بالعربية، تقول لها فيها: «أنت غزالتي، ألماستي، فرحتي.» . أجابتها في اليوم نفسه، رادةً على قصيدتها: «أحب شعرك، أحب فمك، أحب لحظات صمتنا السعيدة.»

كانتا تتحادثان بالهاتف طيلة ساعات، لتتبادلا الكلام عن أشياء تافهة، ولتسمعا بعضهما.

من وقت لآخر، كانت الفتاتان تنامان في المنزل نفسه: كل منهما كانت أحياناً مضيفة، وأحياناً أخرى ضيفة. كانتا تشاهدان التلفزيون ثم تنزويان في الغرفة. ترويان لبعضهما قصصاً، وتلعبان

لعبة الأحاجي، والعـرّافة، ولعبة العشاق، وتتبادلان عهوداً من نوع: «لن أسمح أبداً لرجلٍ أن يلمس صدري» أو «لن يقترب مني رجل أبداً» كانتا تتعلمان كُرهَ الرجال، لكنهما لم تتمكنا من احتقارهم. كانتا تتبادلان العطور والحلي، وتغفوان بحنان وهما تتبادلان مداعبات حلمات نهديهما.

كانتا تستيقظان سعيدتين وترويان لبعضهما الأحلام التي رأتاها.

5) يهمس في شعرها

الوقت عشيةَ عطلةِ الربيع. تـلـقـث رسالة مجنونة ويائسة من زميل في الصف. رسالة حب. عبارة عن قصيدة حب ساذج ورقيقٍ، لانهاية لها. أبيات مقفاة باللغة العربية الفصحى، وأبيات حرة باللغة المحكية، وعبارات مجاملة منقولة من كتاب «السكرتير المثالي»، وأزهار مرسومة. وفي أسفل الصفحة، توقيع فخم وغير مقروء بطبيعة الحال.

لم تردّ. مسألة إباء وكبرياء. فكرت طيلة العطلة بالأمر. مع العودة إلى المدارس، كتبت له رسالة صغيرة تقبل فيها صداقته، لاأكثر. كانا يلتقيان كل أربعاء في مكتبة البعثة الجامعية الثقافية الفرنسية بتطوان. يجب القول إن هذا المركز الذي يضع فيه أشخاصٌ حسنو النوايا، الشهاداتِ الأولى على التصدع بين عالمين، في متناول طلابٍ وطالبات معاهد تطوان، على مرأىً من سيدٍ بدين متسامح (وإن كان ماجناً بعض الشيء)، هو مركز مفيد، حتى إن لم يكن له أي دور آخر سوى تسهيل لقاء بعض العشاق. فبفضل الحصانة المعترف بها للكتاب ولاكتساب الثقافة (وأية ثقافة!)، لا يمكن للأهل أن يرتابوا أن بوسع بناتهم فِعلَ شيءٍ في مكتبةٍ، سوى قراءة الكتب أو استعارتها. خاصةً إذا كانوا هم أنفسهم، يذهبون

مساءً لـتـلـقّي دروس في اللغة الفرنسية في المركز نفسه. كانا يلتقيان إذن في المكتبة، بين «الفلسفة» و«الرواية الفرنسية». كانا يتحدثان عن الحب والصداقة، مستـنـدَيْن إلى أعمال الأب تيلهارد دو شاردان الكاملة، وإلى بعض مجلدات برغسون، ونصوص رينان، وإلى بعض محاورات أفلاطون وبحوث دولافيل، وغاستون بيرجيه، وإلى رفٍّ كاملٍ من الكتب حول الفكر الإنساني، والمسيحي... الرف المقابل مخصص للأدب الفرنسي الجيد، الكلاسيكي والمعاصر: روايات بيير لوتي، أناتول فرانس، موباسان، فورنييه، رومان، كامو، سارتر، وغي دو كار (على الأخص غي، الذي خصص له وحده، رف يمتد مترين؛ لأن كتبه مطلوبة جداً وتتوافر في معظم الأحيان، نسختان من كل كتاب: نعم! ماهو الشيء الذي لا يمكن عمله من أجل الثقافة!). كانت تخفض عينيها دون أن تقول شيئاً، تشعر بالارتباك، وتحمـرّ تماماً عندما يقول لها: «أود أن أرى صدرك.»

هذا العام، لم يرافق ذويه إلى موسم مولاي عبد السلام. بقي لوحده في البيت. واستطاع إقناع الفتاة أن تأتي إليه للعمل معاً في وظيفة الفلسفة. ارتدت جلابية، تناولت الكتب من المكتبة وذهبت إلى منزل الشاب. شرعا في العمل بطرح وجهة نظر كل منهما في المسألة. أمسك يدها وقبلها من فمها. أغمضا عيونهما كما في السينما. عندما صار فوقها، تشنجت وحاولت رده. ضمّت ساقيها بشدة، الواحدة إلى الأخرى وانفجرت منتحبة. كان الشاب، الذي قذف في بنطلونه، يخفي بيديه بقعة البلل التي كانت تظهر عند مستوى الخصر. كان يشعر بالخجل. هي أيضاً كانت تجتاحها مشاعر مرتبكة من الرغبة والخجل.

كان ذلك أول احتكاك لها بشاب. بالكاد لُمست. قبلة وبعض المداعبات.

لقاء عشرة دراهم، فتحت له عاهرة، من المسلة، ساقيها، في ظلام غرفة بائسة. قذف بسرعة وانطلق بسرعة، شديدَ الخيبةِ

والقرف، إلى درجةٍ لم يستطع معها أن يبكي عزلته. لقاء عشرة دراهم لم تكن المرأة تتعرى تماماً. كان دوماً يأمل أن يلتقي بعاهرة شابة ومتفهمة تحبه لمدة ربع ساعة صغيرة.

صنع لها الشاي بالنعناع.

نظر كل منهما إلى الآخر بصمت.

أخذت يده ومررتها على صدرها.

9

متوسط القلب

لو يمكنه الاختفاء بحركة مقتضبة! حركة سحرية باليد، ترافق الشمس الغاربة، التي تنزل ببطء عند هذا الخط الغامض من اللون والعذوبة. لو أن بوسعه محو هذا الأفق المصبوغ بألوان الغسق، بجرة قلم، أو بجملة تُهـمَس في أذن امرأةٍ عجوزٍ محتضرة، لو يستطيع الخروج سليماً من جسمه، والسيـرَ حافي القدمين في غابة طفولته الصغيرة!

يرتفع الأفق مثل حائطٍ أُقيم فوق كومة من الحطام، يفصله عن اليوم الذي سيأتي. كان الحائط يغير مواقعه، مطلاً على حقل من الرمل تتمرغ فيه أجسادُ نساءٍ عارياتٍ بالمئات، شقراوات، صهباوات، بيضاوات، شابات، مجعدات، مدهنات، قبيحات، عجوزات، متعطشات للجنس. يغمض عينيه. تنهض جميع النساء، ثقيلات أو خفيفات، مادّاتٍ أذرعهن باتجاهه. هل سينتزعن أمعاءه، أم سيبتلعنه؟ يعرف أن روحه انتُزعت منه، إلا أنه يظن أن لديه القوة الكافية من أجل استردادها في أية لحظة.

جسد منتصب في الليل بلا حنان. كان جسداً مرصوداً لأرق الغريبات. جسداً لوَّحـتْه الشمس والملح البحري. جسداً سُلِّمَ لهذه الكومة من اللحم الزهري الذي صفعته الحرارة والحمى. الآن، يتنقلن كتلة واحدة، ببطء، بثقل، كما لو أنهن يـتْبَعن عصا قائد

أوركسترا سيء. أصابه الدوار هذه المرة في كرشه. نهض، شرب كأس ماء، ابتلع حبة أسبرين. جلس أرضاً، وصالب رجليه. سمع ضجةً غامضة قليلاً في البعيد. أصوات نساء يثرثرن في بهو الفندق. اجتاحت الغرفةَ، هـبّـاتٌ من عطور مختلطة. لم يعد يعرف ماذا يفعل لكي يوقف الحمى والغثيان.

كان قد تأخر عن عمله وألقى، وهو يرتدي مايوه السباحة، نظرة سريعة على البحر. إنها مسألة اعتياد من معلم سباحةٍ يعمل في جميع الأوقات. كان البحر هادئاً. والشمس التي ارتفعت حرارتها، كانت تَعِدُ «أعضاء النادي اللطفاء» بنهار مشهود. كان نهاراً يستحق: تسع علامات من عشر، ويُسَجَّل في لوحة شرف نادي «الشمس الدائمة.»

يكاد الأمـرُ يكون صحيحاً! « للبحر وطن» . وهذا الوطن هو تونس. «متوسط القلب، وقلب المتوسط !» نظر إلى الإعلانات، حدق فيها طويلاً إلى أن تحول البحر الأزرق والصافي إلى بحر هائج ومخضرّ، وتحول قارب الصيد الصغير والهادئ إلى سمكة قرش بأسنان طويلة، تبتلع هذه الأجساد السمينة التي تزعج لياليه. وضع على رأسه قبعة «المسؤول اللطيف»، جـهِد أن يبتسم وفتح باب غرفته بعد أن مزق قطعة من الإعلان الجميل. توقف لحظة، أخذ قلم تخطيطٍ أسود كان مرمياً في إحدى الزوايا ورسم على زرقةِ هذا المتوسط، ذكراً هائلاً. شطب كلمة قلب، وكتب فوقها كلمة تنسجم أكثر مع الحقيقة. أعاد قراءة الجملة وانفجر ضاحكاً: «*متوسط الذكر وذكر المتوسط*»! سُرّ لهذا التحول الطفيف. انتقام صغير جداً. شعر بشيء من الارتياح، بل شعر أنه أكثر خفة. للأسبرين أحياناً فضائل لاريب فيها! أفكار واضحة وحركات جريئة. حتماً لم يكن ذلك بالشيء الكثير، لكنه لم ييأس من أنه سيمضي أبعد في المرة القادمة. على كل حال، كان قد لاحظ للتو أن عشرة أعوام من عمرٍ فتيٍّ، ومتينٍ، بُذِلت في سبيل النادي، وفي سبيل سعادةٍ عابرةٍ، تُمنح كجائزة، لأجسادٍ قَدِمت من الـبَرد، تستحق بعض الأفعال الجريئة.

قال له والده: «أنت على الأقل، لن تصير صياداً. ستصبح شخصاً مهماً: سيكون عندك عمل. موظف في البلد، رجل محترم، أستاذ مثلاً. صياد؟ إطلاقاً! الفقر ما عاد ممكناً.» . كثيراً ما كان يرافق والده حين يبحر مع صيادين آخرين. كان أصغر من أن يفهم آلية الاستغلال، لكنه كان يعرف أن تلك الحياة، ليست تلك التي يمكنه أن يحلم بها.

في الصيف، كان يعرض خدماته على السيّاح، كدليلٍ، أو مترجم، أو حمال. لايهـمّ نوع العمل، المهم هو أن يربح بعض القروش. كان هذا الولد شديدُ السمرةِ، ذو العينين الكبيرتين الصافيتين، يثير شفقةَ مجموعاتٍ كاملة من السيّاح. كان يمثل دور العربي الوقح واللطيف. يقدم للنساء باقات صغيرة من الياسمين، صنعتها أخته. ويبيع للرجال، تحفاً صغيرة مزخرفة، وبطاقات بريدية. في أحد الأيام اجتذبه رجلٌ، وقاده إلى الطرف الأقصى من بازار للسجاد. وضع يده على فتحة سرواله. استشاط الصبي غضباً، ركله في عظمة ساقه وفر هارباً، تاركاً إياه وقد تكور على نفسه من شدة الألم. كان نهاراً سيئاً. أمسكت الشرطة به واتهمته بالسرقة. سرقـةُ سائح في بلد فقير هي أسوأ جنحة! كيف السبيل لإفهام رجال الشرطة أن الصبي الفقير لايكون سارقاً بالضرورة؟

في الثامنة عشرة من عمره، أصبح أكثر أعضاء النادي حيوية. كان منتسباً جميلاً: أهيف، خفيفاً، جميلاً، وبجاهزيةٍ كاملة للعمل. أعطيت له قبعة معلم سباحة، وأُفهم أن «السباحة»، ربما تعني أشياء أخرى أيضاً. وفي المساء، ومع أنه لم يفهم التلميح، أُرسِل إلى سيدة مسنةٍ، لم تستطع احتمالَ الشمس، ليحمل لها زجاجة مياه معدنية. استقبلته في سريرها، نصف عاريةٍ. شدّته إليها وأطلقت حشرجات تقطَعُها كلماتٌ ألمانية. سبق له أن مارس الحب مع بعض السيّاح، لكنه لم يسبق له أبداً أن مارسه في ظروف مماثلة. فهو الذي كان يقوم بالمبادرة، عادةً. هنا ليس هو. شعر بالغيظ. عند خروجه من غرفة السيدة، خربَشَ جملة على دفتر صغير ومضى ليغتسل في

غرفته: «الثلاثاء: تتكلم الألمانية، ثدياها متهدلان، ورجلاها ثقيلتان. 2 من 10 !»

في اليوم التالي قال له رئيس المعلمين: «تلك السمراء الصغيرة، هناك، لاتعرف السباحة. اسمها ماري...» لم تكن بمفردها، إلا أن صديقها لم يكن يهتم بها فعلاً. تبادلا القُبَل في الماء، وناما وقت القيلولة معاً. الأربعاء: «*ماري جميلة. نهداها صغيران. تصرخ بقوة، 5 من 10... الجمعة: أرغمتني أن أفعل ذلك على الواقف. فمها بلا شفاه 2 من 10!...*»

كانت مهمةُ حوالى عشرةٍ من معلمي السباحةِ العرب، الحفاظَ على سمعة النادي الراسخة. بعضهم يعتبر أنه يؤدي مهمة محددة، فيقوم باسماً بكل مايطلب منهم. هي مهنة مثل غيرها! يلتقون شتاءً، يكشفون لبعضهم رسائل الحب التي تلقوها من فرنسا، من بلجيكا، من ألمانيا ومن سويسرا... كان الحنين يسبب لهم ألماً في الرأس.

حل الشتاء على البلاد، ببطءٍ هذا العام. غطى الشاطئَ وشاحٌ مبيضٌ. كان بعض الصيادين الفقراء يعبرونه بلا اكتراث. استعادت البلاد تجاعيدها بعيداً عن الصور والأساطير. خَفَتَ بريـقُ الصورة الجاهزة والمكرورةِ لبلـدٍ متوسطيٍ محبوب. بلـدٍ سعيد وجاهز للاستعمال.

هو أيضاً راح يذرع الرمال بانتظار افتتاح النادي. يروح ويجيء بحثاً عن شيءٍ ما أو حدثٍ ما. كان يفكر فيها: سمراء ونحيفة. عيناها، هما عينا الطفولة السوداوان. حياء في الحركة. ندرة في الكلام. الحنان وعطر الأرض، مسقط الرأس. كان يفكر ويحلم: فتاة من البلد، ربما تكون خجولةً وبريئة. قصيدة عربية أو أغنية تقليدية. كان يختلقها كل يوم ويمد لها يده ساعة الغسق، ثم يعيدها إلى بيتها، لأنه قرر أنها ربما تقيم في المدينة، في بيت متواضع، وربما تتكلم الفرنسية بشكل سيء، وربما ستُسمعه قصائد لأحمد شوقي والشابي. إنها ربما تحبه في السر.

كانت صورتها تسكنه. لم تكن تتغير كثيراً: أحياناً، كانت تختفي بشراسة. فـيُجَنّ، يدخن ويشرب أملاً بالعثورعليها ثانيةً. كان يصل حتى عقدة سيدي بو سعيد، بحثاً عنها، ويعود إلى المدينة سيراً على الأقدام. لم تكن تعود أبداً في الوقت المتوقع. كانت تهبط غالباً في منتصف الليل، في منتصف حلم، بصمتٍ، على ظهر حصان أو على دراجة. فيستيقظ سعيداً ويعود للنوم مبتسماً.

فصول الصيف تنقضي ونساء النادي يتشابهن. شابّات إلى هذا الحد أو ذاك. وهو نشيط دوماً، فحـــل دوماً. يحمل دفتر يومياته حيث يتسلى بإعطاء علامات لجميع هؤلاء النسوة: «السيدة (س) 10 من 10»، إلى جانب التعليق التالي: «*ممتازة. أنيسة وإنسانية. تحدثت معي. استمعتُ إليها. لم نمارس الحب*». لم يعطِ لجِرترود علامة، بل التعليق التالي فقط: «*هذه يجب ألا تحب الرجال. اعتنَتْني وعاملتني كامرأة.*» وهذا التعليق عن هيلين، بعد علامة 8 من 10 : «*لابد أنها عربية. إنها تشبه الفتاة التي أحلم بها كثيراً، لكنها تحب ممارسة الجنس أكثر من اللازم*». وعلى صفحة أخرى، الجملة التالية بدون تعليق: «*باتريسيا رجل!*».

كان قد راكَمَ عدداً لايحصى من الأسماء والمغامرات المختصرة. وكلما بدأ بالعـدّ أصابه ألم قوي في رأسه. أصابه دوار. هي ذي مفكرته العاشرة. في كل صيف واحدة. يصير الحساب أسهل. لابد أنه وصل إلى الأجنبية رقم ثلاثمائة واثنتين وأربعين. لم يكن يجد في ذلك مايدعو للفخر. صعد الغثيان إلى حلقه. ثلاثمائة واثنتين وأربعين أجنبية، ولا امرأة واحدة من بلده. شعر أنه فقد السيطرة على حلمه. فالفتاة العربية التي كان يأمل لقاءها ما عادت تسكن مخيلته. لقد أصابه السأم. كان النادي يغلق أبوابه مع أولى أمطار أيلول. وضّب حقيبته وقال له رئيسه وهو ذاهب: «كان فصلاً جميلاً، أليس كذلك! جاءنا هذا العام عدد لابأس به من الشابات. إلى العام القادم. انتبه لنفسك هذا الشتاء. تـنـبَّه خاصةً من العاهرات.»

جلس يشرب عصير ليمون في مقهى باريس، مسترخياً وبكامل

جاهزيته. ينظر إلى المستهلكين بطلاقة وعدم اكتراث. كان هناك طلاب يتناقشون. عرض عليه صبي في حوالى الثانية عشرة من عمره، بطاقات بريدية. اشترى واحدة دون اختيار. كتب على ظهرها الكلمات القليلة التالية: «*عودي. أنتظرك. لستُ مرتبطاً بأحد. عودي سريعاً. الوحدة تؤلمني.*» وقّع ووجّهها لِـ : *زهرة، فتاة حلمي التونسية*. ألصق الطابع. وضعها في علبة بريد وراح يتسكع في المدينة. تلك كانت زجاجته التي أرسلها في البحر. كان يسير ببطءٍ حين رآها. كانت هي. عرفها في الحال كما لو أن في الأمر سحراً. نحيفة وسمراء. أحس بصدمة. اقترب منها وهو يغمغم ببضع كلمات: «زهرة... أين كنت؟ زهرة... حبيبتي... لا، اعذريني... زهرة، بحثت عنك في كل مكان، في الليل، في النوم، في شوارع طفولتي، طفولتنا...» توقفتْ وقالت له: «اسمي ليس زهرة. اسمي خديجة.» تقدما بضع خطوات معاً. لقد نجح في أن يراها من جديد. تعمل خديجة في المركز التونسي للحرف اليدوية.

تأثر بصوتها، وشعر بالخجل والارتعاش. لم يعد يحلم بها، بل بدأ يكتب لها رسائل الحب والقصائد والقصص. إنه عاشق، عاشق لأول مرة في حياته. كانت ردة فعله، هو من يبلغ السابعة والعشرين من العمر، مثل ردة فعل مراهقٍ تنقصه الخبرة. جاءت تزوره، مساء أحد الأيام، في بيته. كان يشيع جو من الجنون والبهجة. تبادلا القبل ثم نزعا ملابسهما. داعبها بكثير من النعومة. فجأةً تملكه ذعر. خنقه انفعال مفاجىء. بَرَدَ جسمه. شعر بما يشبه الحرق في الدم. كانت جميع أعضائه تعمل ببطء. العار. ومثل طفل، راح ينتحبٍ ووجهه إلى الحائط. حاولت خديجة أن تطمئنه. قبل يديها طويلاً. لفَّ نفسه بالأغطية، حاجباً وجهه، وانهدَّ في صمتٍ عميق.

10

الحياة خَفِرة مثل جريمة

قال له أحد الأصدقاء: « احذر من الكلمات!» ولكن الكلمات هي حياته. ولأنها تغويه، يستخدمها بكثرةٍ لإغواء الآخرين. هي أيضاً كانت تحب الكلمات، ولكن بطريقة مختلفة: تحبها محدَّدة، وافية، صحيحة. كانت تستشير القاموس مراراً، وتفضل قاموس Littre على قاموس Robert . هنا كانت تتمثل صرامةُ امرأة أجنبية، حين تعيد قراءة شكسبير في نصه الأصلي، متمهلةً. كانت تحب أن تتكلم وتضحك، محافظةً في ذات الوقت، على صداقةٍ وحضور غامضَين. كان يحب صوتها وانفجارها في الضحك، وكان مأخوذاً بثقافتها وحركاتها. يصغي إليها ويتكلم قليلاً. كان لديه أشياء يقولها لها، بل الكثير من الأشياء، لكنه كان يفضل الإصغاء إليها، وخصوصاً النظر إليها وهي تتكلم. كان يتابع حركات يديها سراً. يدان كبيرتان، رشيقتان، حازمتان. كان يتخيل موسيقا هذه الحركات ويبتسم بصمت. عيناها تفيضان بالضوء والذكاء (كان يحب أن يقول «ذكاء فيكتوري»). لم يكن يجرؤ، من فزعه، أن يضيف شيئاً إلى جملها.مع ذلك، كان هناك شيء ما يضايقه، أن لاوجود لأدنى حركة خاطئة. كانت كلماتها دوماً منتقاة بعناية، دوماً في مكانها، وتتشابك في كُلٍّ كاملٍ لا عيب فيه. صرامة لاتتزعزع، متكلّفة قليلاً ربما، ولكنها غير مبالغاً بها قط.

كانت تحب أن تخابره في أية ساعة من النهار، وأحياناً تخابره في الليل. كان هذا يرضي غروره ويجعله أكثر سعادة من أن يستطيع العودة إلى النوم. فيبدأ بالتفكير بها ويراها تسكن أحلامه. كان بالكاد يجرؤ أن يصدق الأمر خوفاً من أن يزعجها، خوفاً من ألا تفهم.

في أحد الأيام كان عليه الذهاب إلى موعد عمل. كان الطقس جميلاً. نسي أن يركب الباص وسار ساعات في شوارع باريس. كان مفعماً ومذعوراً، يراها في كل مكان: في بعض القامات، فوق بعض الصور. ظهرت مرتين أو ثلاثاً، مثل ظهور البرق. لم يستطع متابعة نزهته. كانت في كل مكان. عاد إلى البيت. انزوى وأخذ حماماً ساخناً جداً. ظهرت في مرآة الحمام، ملفوفةً بفراء جميل. نهض، اختفت. على منضدة العمل، كان هناك كتاب مفتوح على الصفحة 106 (رأى فيها حركةَ فكرةٍ، آثار يـدٍ حبيبةٍ كانت قد أخرجت هذا الكتاب من المكتبة). كان هناك أبيات شعر تحتها خطوط:

أيكون أكثر نبلاً للروح أن تعاني

من سهام وضربات قدر شنيع

أم أن تتسلح ضد بحر مضطرب

أن تواجهه وتوقفه؟ أن تموت، أن تنام...

أعاد قراءة هذا المقطع بصوت مرتفع، ثم راح في نوم خفيف. عندما خابرته في منتصف الليل، ما عاد يعرف إن كان نائماً، أم أنه يحلم أم أنها كانت تجلس على حافة السرير تنظر إليه وتقول له: «هيا! اسخر مني!» كان يود لو يسخر منها ويقول لها إنه يتأثر بوجهها حتى عندما تتخذ هيأتها الجادة، وإنه يتمنى أن يراها لِمرّةٍ واحدة، متعثرةً، حائرة، حنونة وهشة. فقد كانت خجولة، وامتلكت وسائل دفاع على جانب من الفعالية، ربما بعد أن أجرت تحليلاً.

أحس في أحد الأيام، أن شيئاً ما قد تغير. كانت تلفظ الكلمات بنبرة حادة فيها لذعة من العدوانية. ربما كانت متضايقة. هو الغني بقدر كبير من الغموض، لم يعد يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول. مابينهما صداقة بالتأكيد، ولكنه كان يود المضي أبعد من ذلك. يتمنى أن يـحـمِّل الكلمات مشاعره، التي كانت تصبح أقوى فأقوى. كان يتأثر بهذه المرأة، الشيء الذي لم يحدث له إلا نادراً. كان سعيداً وتُقـلِقُه سعادته. لذلك قرر أن يقول لها ماتثير عنده من سعادة وانفعال. كانت تلجأ إلى فترات صمت طويلة. هل كان ذلك صمت الدهشة، صمت الخوف أم صمت المسافة؟ عندها اجتاحته الكلمات، رقيقةً، شاعرية، مجنونة. كانت تتدافع، تتعانق فوق بطاقة بريدية، كانت تذهب وتعود. تنزع عنها الغطاء والحجارة. وضعَ كل شيء في الكلمات ولم يهمل شيئاً.

عندما التقى جسداهما، لقاء التلهف والشوق، كان منذهلاً، مندهشاً مثل طفل، وكان قد بدأ الحداد. قدر كبير من الانفعالات كان يضعه بغتةً، وجهاً لوجه أمام أمر أكيد: يبدأ فعل الحداد مع بدء الحب المجنون. هل يمكن أن تحب دون أن تعطي نفسك، وأن تعطي نفسك دون أن تفقد نفسك وتموت؟ أَ بَعد هذا يدع هذا الحب ينفتح على اليوميّ، على اليوم الرمادي وعلى أي يوم؟ لا. لم تكن علاقةٌ من هذا النوع تشكو من أي تشوه. وليس فيها أدنى صدع، وبلا أية نافذة على العالم. كان يعرف ذلك لكنه لايجرؤ أن يمعن في التصديق. كان يترك نفسه تنساق مع احتدام مشاعره التي لم تعد تعرف أين تحط. يجب القول إن هذه المشاعر نادراً ماأثيرت، وكونها استطاعت لمرةٍ أن تنطلق، فإنها ترتطم، داخل جسده، بكل شيء تقريباً. لهذا راح يكتب لها الرسائل: كلمات منحوتة، منقوشة، بقَصد أن تكون فاتنة وراقصة. كان يتكلم بشكل سيء، يلفظ الأحرف الصوتية بشكل سيء، يتلعثم عندما تجعله يكرر جملةً، كلمة. لم يكن يشعر بالغيظ، لكنه يعترف أن كلامه كان يسوء في مراحل معينة من النهار. كتب لها:

لاأكـفُّ عن انتظارك، والـحب انتظار بلا انقطاع، بشوق التلهف. عندما ألتقي بك، أكون قد بدأت بانتظارك في خمول ساحر وسعيد. أحبك وأنا ألامس الكلمات والتراب، في الوميض الذي يخلفه الصمت.

هل كان الحياء هو الذي منعها أن تقول شيئاً عن الرسائل والبطاقات التي تلقتها؟ أم أنه الخوف من الاستسلام للكلمات، للانتظار، لحالة الحب؟ أشارت مرةً إلى «رسالة شعرية» ربما استلمتها... ضحك من الإشارة وبدلاً من أن يصمت، بدلاً من أن ينسحب، كتب رسالة أخرى، قصيرة إنما مذهلة. حطت كل كلمة مثل جمرة على جلدها. كان في الواقع مستمراً في إحراق أوهامه، واحداً إثر آخر:

الرغبة القوية والجميلة، الانفعال العميق عند رؤيتك. ذكرى صوتك في هذا الليل الذي عكست فيه الكلماتُ، النهارَ في النظرة، بدافع الحياء. أنحّي العذوبة والكلمات كي أقرأ بين يديك، بين عينيك، ماوضعه الصمت.

على حافة النوم المترددة، دمعة سعيدة تعلن الفجر.

هذا الصباح الذي هو منك، وهذا النهار الذي أمضي فيه على أطراف مشاعري إليك، كالبهلوان الذي تخنقه نجمة صغيرة بمقاطعها اللفظية.

كانت هذه آخر رسالة.

منذ ذلك الوقت لم يعلم شيئاً عنها.

لم تكن من النوع الذي يختفي. راح يبحث عنها من جديد دون أن يغادر غرفته. لم يعد يخرج أو يبتعد قط عن الهاتف، وعندما يخابره أحد، يختصر المكالمة، متذرعاً بأنه على وشك الخروج،

ويعد بمعاودة الاتصال. ركز كل اهتمامه على هذا الجهاز الذي تحول إلى مـنـظِّم مسؤول عن شعوره بالـغـمِّ، وحائكاً له. عندما يضطر حتماً للخروج، كان يرفع السماعة، مما يعطي إشارة مشغول، أي دليلُ وجود، واحتمالُ معاودة الاتصال. كان يتصل بها في ساعات متفرقة. لا جواب. بدأ هذا الغياب يأخذ أبعاداً دراماتيكية، وكلما ألحَّ أكثر، ازداد حجمُ الغمِّ أكثر. هذا هو أن تحب: أن تُمـنَع، أن تعجز عن التفكير، وعن فعل شيءٍ آخر، أن تنتظر أدنى إشارة، حتى أكثرها تفاهة، أقلّها شأناً. ربما كان خطها معطلاً. اتصلَ بمصلحة الهاتف وطلب منهم التحقق إن كان الخط المطلوب يعمل بصورة طبيعية. كان كل شيء حسب الأصول.

في اليوم العاشر للصمت، قرر الذهاب إليها. اختار الوقت الذي تـقـدِّم فيه العشاء لأطفالها. قبل أن يقرع بابها، تردد طويلاً بسبب ضيقه الشديد. فكر أنه سيجد، كما في الأفلام الأمريكية، امرأةً مسنةً ومندهشة تماماً، تقول له: «لكني ياسيد، لا أعرف هذه السيدة أ ، أنت مـخطئ، فأنا أسكن هنا منذ تسع وثلاثين سنة... إنك مخطئ...»

تخيلَ سيناريو آخر: أ. ستفتح الباب، وترتمي، دامعةً، بين ذراعيه وتقول له: « ولكن أين اختفيت؟ لقد جننتُ من القلق. هـاتفك كان يرن دون جواب. ثم أن البوابة قالت لي إنك حتماً سافرت إلى الخارج، على عجل...»

لا. هذا لم يكن يشبهها إطلاقاً. هي، دامعة؟ لا! إنه يحلم. إذا اقتضى الأمر، قد تفتح الباب وتقول له: «أنت، يالها من مفاجأة! كيف حالك؟ أرأيت كيف يحكي ليفي شتراوس عن رحلته إلى اليابان؟ هذا البلد يسحرني. لقد عرف كيف يحافظ على سلامة ثقافته وتقاليده. أتريد كأساً؟ إني تَعـبة. أحتاج لقليل من الهدوء كي أستعيد مملكتي الصغيرة، حـيِّـزَ وحدتي. وأنت، ماذا فعلت اليوم؟...»

هذا مستساغ، عند ذاك سينهض ويمضي بالسرعة الكلية.

وسيتمكن في ساعات أرقه، من قراءة تأملات ليفي شتراوس حول اليابان...

قال لنفسه: ربما انتقلت من البيت... لا. كان هناك ضوء ويسمع ضجة الأطفال. لامجال للشك. كانت تصل إلى سمعه نغمات من سوناتا شوبيرت للبيانو، كانت تحب عزف براندیل كثيراً. قرع الجرس. فتح أحد الأطفال الباب، ودون أن ينظر إليه، مضى إلى غرفته قائلاً:

ـ ماما، لكِ.

جاءت وقالت:

ـ نعم، ياسيد... ماذا تريد؟

ـ ماذا أريد؟ ولكنكِ...

ـ اعذرني ياسيد، أنا مشغولة. لاأعرف ماذا تريد...

ـ لا، لاشيء. عفواً... أنا لست من هنا؛ وصلت للتو من بلد بعيد... لابد أني أخطأت الشارع... فرق التوقيت... عذراً...

مضى، شبه متخفف، بانطباع من ارتكب الجريمة الكاملة. لم يبق عليه سوى إزالة القليل الذي تبقى، ومحو بعض آثار الأقدام نهائياً. كانت أجمل من السابق، وكان صوتها مايزال يسحره. بقيَ في مسامعه وهو يمشي تحت مطرٍ ناعم. كان البلد البعيد مدهشاً، لكنه لم يعد بمقدوره العودة إليه. بلد لا يَحتمل إلا الاستسلام الأقصى، استسلام الجنون واستسلام الموت. قال لنفسه: أنا هو ذلك الشخص القادم من بعيد جداً، بعيد جداً...

لدى عودته، أعاد ترتيب البيت، رتب الكتب التي كانت يدٌ ما، قد فتحتها. سقى النباتات ثم جلس إلى مائدة العمل. كانت هناك رسالة غير مغلقة وضعت أمامه، وعلى الغلاف كُتِب حرف أ. فقط. فتحها وقرأها:

أ. غريب حقاً، كل اقتصاد الحركات والصداقة هذا. كَوْني التقيتكِ، هو بالنسبة لي، أبهى ما حدث لي منذ زمن طويل.

التخلي عن هذا اللقاء، لتجنُّب إفساد شيءٍ جميل، شيءٍ، سوف يظل قوياً في انفعالاتي، يبدو أمراً يفرض نفسه ببعض البداهة المتأخرة. الغموض العزيز جداً، سوف يَسلَم، وقد أُبعِد عن النسيان، وانـتُخِبَ في مطلق الوهم.

أعاد قراءتها. كان ذلك أسلوبه بالفعل. ولكن الخط ليس خطه. فكر لحظة، لكنه لم يعرف أبداً من الذي كتب هذه الرسالة، أو لمن كانت موجهة، أو من الذي وضعها على المنضدة. لقد امتلك أخيراً عنان لغزٍ تمنى حقاً أن يستخدمه يوماً في رواية.

11

الآخر

تمنى لو أنه شخص آخر. كان هذا هاجسه. ولكن من الذي لم تكن لديه يوماً تلك الرغبة الشديدة بتغيير صورته، بأن تكون له ذاكرة أخرى وعلامات أخرى؟ الفرق أنه هو، كان طوال الوقت يرغب أن يكون أحداً آخر. كان جسده يُربِكه، صورته تُضجِره وصوته يثير أعصابه. كان يتمنى لو يستطيع الخروج من جلده الذي يراه واسعاً جداً عليه، والذهاب إلى مكان آخر. لو يستطيع تخطي جسده والفرار فوق رمال بعيدة. لو أنه إنسان من صلصال وتراب، جسد يتفتت، دونما سيطرة عليه. لو كان ظلاً، غياباً، بديلاً. إنه الشوق إلى الفراغ والعدم. كان يحلم بهذا الآخر، الذي لا يُدرَك، الذي لا يُعـرَّف. كان بعيداً عن حلمه، وما أن يبلغ مكاناً حتى تبدأ رغبته بالرحيل. كان هذا يُرى في وجهه. لم يستطع إخفاء التعبير عن ذلك الشوق الذي يـفـتِكُ به. كان مسكوناً بذلك الآخر، وفيما تبقى من وقت، كان يتظاهر، يتظاهر بأنه يعيش ويحب. ولكن منذ أن قالت له المرأة التي يحبها: «أنت رجل مُرَبَّط، ولستَ مسلياً.»، قرر أن يفعل شيئاً. أن يكون شخصاً آخر، وهذا سهل: يكفي أن يُطْلق العمليةَ اللازمة لهذا النوع من التغيير. يحبّ أن يكون مسلياً، خفيفاً، مسترخياً، لـيِّناً، مثل أولئك الأشخاص الذين يمرون في الأفلام الأمريكية راقصين. أن

يكون بهلواناً، مغنياً يفتن القلوب، بوهيمياً. أن تمتلىء حركاته وكلماته بالحلاوة والفن.

أن يكون مسلياً ومفاجِئاً! أن يدهش الآخرين، أن يدفعهم إلى خندق الضحك. كان مقتنعاً أن الآخر أظرف منه. يعرف ذلك، ولذلك أراد أن يستولي عليه. ولكن، كيف يصير إنسانٌ ما، شخصاً مسلياً، في حين أنه حيوان مليء بالغمّ؟ فرض على نفسه نظاماً، واختار صورة محددةً، أُخِذت فعلاً لهذا الآخر. عليه أولاً أن يفقد بضع كيلو غرامات من وزنه. أن يرتدي ملابس شبابية غير رسمية. أجرى بعض الترتيبات في الاستديو الذي يسكنه: وضع جهاز استيريو هاي فاي، وأريكة مريحة جداً لسماع الموسيقا. رأى في التلفزيون دعايةً يغوص فيها موظف مستَرْخٍ في أريكته الآسيوية ليتذوق حساسية الستيريو. كانت ملابسه مهمَلة بعناية. أي، مايلزمه تماماً كي يحظى بالإعجاب. اشترى مجلات أزياء، يعرض فيها رجال ممشوقون وجميلون. دَرَسَ وقفتهم. على هذا المستوى، كان مصمماً فعلاً أن يتحلل من أربطته. البعض يذهبون إلى المحلل النفسي لهذا الغرض. هو، ذهب إلى الحلاق. في المساء أحس ببعض الرضى، لكنه كان متعباً. ليس سهلاً أن يبدل حركاته وعاداته. فكر كثيراً بِوودي آلان. وضع نظارات طبية سميكة وراح يقلده ويضحك بمفرده. كان يقول: «هذا شخص آخر مختلف، ربما يكون فريستي القادمة، الظل الذي سأركض وراءه... أن تكون مسلياً! أمر صعب. يجب أن يساعدني الآخرون، أعني أن يحبوني قليلاً. على كل حال، يجب أن تحبني هي.»

هي فتاة جميلة ومرنة. كانت تحب هذه الكلمة التي تعني أشياء كثيرة: حرة، جاهزة للمغامرة، للخلق، لِلَّعب، من أجل التغلب على الغم والتحايل على الاكتئاب. فتاة تحيا اللحظة بكثافة، دون وقار ودون أن تترك أثراً مرئياً فوق الحد. ترقص، تشرب، تضحك، تدع الغموض يحوم حولها. تغري، تعيش دون قيود. تستمتع، تحب

الحياة في اندفاع مستمر، يظهر على شكلِ عطاءٍ أحياناً، وعلى شكلِ أنانيةٍ أحياناً أخرى.

قال لها في بداية علاقتهما، إنه يعشقها. بعد ذلك اعترف لها أنه يحبها، ولم يكن هذا الفرق البسيط يفوتها، ثم لم يعد يقول لها شيئاً. لكنه أثناء ممارسة الحب معها، كان يكلمها، يسمّي لها الجسد والرغبة. كانت الكلمات تثيرهما جداً.

«أنت مربَّط، ولست مسلياً!»، كان يراقب نفسه بلا انقطاع. يعرف أنه مراقَب. ويكتشف، حين يجد نفسه بين مجموعة من الناس، كم كرهُهُ لهم كبير. لم يكن الناس يثيرون اهتمامه فعلاً. كان قليل الكلام، ويحسب حركاته وكلماته. ورغم أن لديه مايقوله، لكنه يفضل الصمت. الصمت ولا الوقوع في الخطأ! كانت ردود فعله قليلة أو معدومة. لم يكن يحس أنه معني بثرثرة هؤلاء وأولئك. يغيب، لكن غيابه لا يلاحَظ. هي لم تكن تحتمل أن تكون مع رجل لايتفاعل. رجلٍ أخرق يكبح عنف الآخرين وعدوانيتهم بالصمتِ، وبقدرٍ لايستهان به من اللامبالاة. وباعتباره لم يكن يشترك في المشاجرات، كانت تحقد عليه وتقف مع المعسكر الآخر بتَلَذّذ. كانت تتمنى أن تُعجب به، أن تفخر به، وهو يتمنى لو أنه هذا الآخر، تحديداً ذلك الرجل القوي، صاحب المال، الذي لايسمح للآخرين أن يدفعوه أو أن يستفزوه. رجل حاضر، نشيط، ولا يتردد أبداً أمام أي فعل أو أي قرار. لكنه لم يكن ذلك النوع من الرجال، ولم يكن لديه أي استعداد أن يصير إليه يوماً. كانت شريكته مقتنعة بذلك وتعاني منه. يمضيان ليالي بأكملها في الكلام لمحاولة الفهم. كان الأمر أشبه باللعبة. هو لم يكن يشعر بالارتياح، إخلاصاً منه لِغمِّه ورغبته. لكن شيئاً ما، كان يُبقيهما، رباط حسي باهر، متعة هائلة، مرهفة وجديدة دوماً. كانت تحدث تحولات في جسديهما، يصيران خُرَّين وذكيين.

رخوٌ وغير مسَلٍّ! لم يكن سميناً، لكن جسمه بدأ يمتلىء قليلاً. لابد أن السبب هو كأس الويسكي الذي يتناوله كل مساء حين

يغوص في أريكته الشرقية كي يسترخي ويتحرر من الإزعاج . لا، لم يصل إلى الاسترخاء قط. في الواقع، هو لم يكن يحب المشروب كثيراً. لم يثمل قط. كان إنساناً واقعياً، يقول لها: «أنا لست مجنوناً!» وتجيبه: «خسارة!». هل كان قادراً على ممارسة بعض الجنون، سواء بدافع الحب أو الهوى؟ لا! نَبَذَ كلَّ إفراط وأَبعَدَ الجنونَ بعيداً. كان رخواً، فوضع لنفسه نظاماً غذائياً، من جهة، حتى ينحف، ومن جهة أخرى تجنباً لمرض السكري المنتشر في عائلته. كان يراقب نفسه، يحمي نفسه، يقتصد في اندفاعاته ويعتدل في انفعالاته. لهذا السبب كان يجري طوال الوقت خلف صورة هاربة. يبحث عن ظلٍّ يحلُّ فيه جسمه، ويصير بمقدور وجهِهِ، أخيراً، ألا يتشنج. إنه البحث عن الصورة المفقودة. دخلت هذه المرأة حياته مثل رسالةٍ أرسلها الآخر، الآخر الأزلي الذي يريد أن يكونه. أكان هذا فخاً، امتحاناً، مواجهةً مع النفس؟ كان مِن قبل مطمئناً، يعيش وحيداً ويغوص ببطء في رفاهيةٍ بسيطةٍ، لم يسبق أن تطفل عليه أحدٌ فيها، كما أن شخصَهُ لم يسبق أن كان موضع إعادة نظرٍ. هل جاءت تلك المرأة لـتـنقذه أم لتقضي عليه؟ لم تكن تعلم شيئاً عن الأمر، لكن استعدادها لِلَّعب، فِتـنَتَها الحائرة، وولعها بالغموض، أشياء أربكت رجلاً يشغلُه الجانب الخيالي أكثر مما تشغله إرادة الشيء الفعلي. في الواقع، كان كل كيانه منصبّاً في الجانب الخيالي. كان رساماً وقليلاً مايحدثها عن عمله، أو مايفصح عن عالمه. لم يـرِد أن يزحم عمله بصورته، بمظهره الخارجي. كان يقول: «أرسم كيلا يعود لي وجه.» كان هذا صحيحاً. لم يرد أن يضع نفسه أمام الشيء الذي يبدعه، بل يبقى في الخلف. يُغَيِّب نفسه، حياءً وتواضعاً. كانت ترفض أن ترى رسومه، وتقول: «أنا لا أفقهُ شيئاً في الرسم، وأفقه في الشعر أقل من ذلك أيضاً.» كان منقسماً إلى اثنين: المبدع والفنان المعترف به، من جهة، والرجل الفرد، المنفصل عن عالمه الداخلي والمنفصل عن حيزه المدهش، من جهةٍ ثانية. حاول أن يشرح لها أهمية البعد الذي يفلت منها. تعترف بخطئها لكنها تتشبث برفضها. هل كان يشعر

بالحرج من هذا الامتناع، من هذه الجلافة النرجسية؟ قليلاً. بل كان يشعر حتى بالرضى لأنه كان يَشْتَبِهُ أنها تحب الآخر فيه. هذه الفكرة كانت تجعله سعيداً، لأنه يجد فيها دافعاً يحثه على التحلل من جموده، وعلى أن يصير مسلياً. كانت تحب الآخر إذن. إنها بالنتيجة متقدمة عليه! سبقَتْه وصاحبت الآخر. لابد أنها تتسلى! من هنا يأتي إذن ذلك الخلل وعدم الفهم! لابد أن الآخر سعيد، بل سعيد جداً. فهو محبوب بغموض متقن، دون مشاكل عاصفة. هنا تكمن اللعبة، يكمن الاستفزاز المفاجىء واللاذع.

نزل الطوابق الخمسة عشر للمبنى الذي يقطنه سيراً وعَدْواً. أصيب بالدوار. راح يحوّم، وتنشطر صورته المنعكسة في مرآة بهو المدخل إلى قسمين. جُنَّ جنونه، فأخذ يرقص وينطنط كمراهق، خفيفاً جداً، واهياً جداً، شبه صورة. صار طريفاً لأنه أخذ يغير لونه كل دقيقة، مثل نجم صغير وقع من السماء، لامعاً، متلألئاً وموسيقياً. أخذت الصور تتلاحق في المرآة بسرعة كبيرة. مد يده، أمسك بواحدة، ولم يعد يفلتها. وببطءٍ، تَقَولَبَ جسدُه اللاهثُ والحي، في تشكيلات هذه الصورة. تمَ التحول الفيزيائي خلال بضع ثوان، لكنه تلا عدةَ شهور من التحضير ومن مشاهد الاستفزاز. قال لنفسه: التغير سهل. يكفي أن يكون الإنسان عاشقاً، عاشقاً جداً لشخصٍ كُلِّفَ بهذه المهمة! كان يسمع صوتاً داخلياً يردد على مسامعه: «اِعلَمْ أن الإنسان لايتغير أبداً. وكل تغير ليس سوى مظهر خارجي أو وهم صُنِع لتهدئة الناس، مجانين الطموح! الكائن لايتغير أبداً. ليس لدى الكائن سوى حل واحد: المثابرة ضمن كيانه.»

الآن، وقد صار هذا الآخرَ الذي طالما حلم به، لم ييأس من الإيقاع بصديقته: سيكون الآخرُ هو من ستحبه، الفنان القلق، صاحب الروح الغارقة في الشك وفي الحيرة. أما هو، فسوف يوافيهما يوماً ما، عندما يكون الضياء جميلاً والسماء بالغة التأثير.

12

عايدة ـ البتراء

«اروِ لي قصة أو أتركَك.»، قالت له، كما لو أنها تريد وضعَ حدٍّ لنزاع قديم، دام بضع سنين. أخطأ أنه لم يأخذ كلامها على محمل الجد. قال لنفسه: لن تجرؤ أبداً أن تمضي بالتحدي حتى النهاية... هي من لا تُنهي جُمَلَها. أخطأ، لأنها هذه المرة نفذت تهديدَها حرفياً. وبهدف طمأنة نفسه، راح يتظارف. لحسن الحظ أننا لسنا في ألف ليلة وليلة! وإلا لقالت لي، مثل ذلك السلطان الدموي: «اروِ لي حكاية أو قتلـتُك!» لابد أنها ذهبت ترفه عن نفسها وترى بعض الأصدقاء، وربما ترى أمها، لكنها ستعود. أعرفها. خلال يومين ستفتح الباب دون ضجة. سيحدث ذلك فجراً، ستنزع ثيابها وتنزلق في السرير ثم ستقترب وتلتصق بي لكي أغفر لها هروبها...

انتظَرَ هذه اللحظة طويلاً، ولكنها لم تعد. عندها بدأ بكتابة قصة، آملاً أن يقرأها لها يوماً. غادر البيت، وعاش بعض الوقت في غرفة بالفندق، ثم سافر إلى بلدٍ، ليس فيه من حيث المبدأ شيء يُحْيي ذكرياته. فكر أن المسافة قد تعطي المشاكلَ بُعدَها الحقيقي. اعتقد أنه بذهابه إلى صحراء الأردن، وتوقفه في البتراء، سوف تَنْحَلُّ كآبته في الرمال.

ما أن وصل إلى البتراء، حتى راح يمشي بمفرده، دون دليل، متنفساً الغبار، ومستسلماً لهواجس غريبة. تخيل نفسه في شكل

تمثال أعمى يسير وذراعاه ممدودان، في الوقت الذي يرشق فيه أطفال طاسات ماء عليه. كان يرى نفسه حجراً بين الأحجار، ثابتاً، لكنه يغير لونه حسب الضوء. عرض عليه أحد المارة قبعة وزجاجة ماء. لم يكن الطقس حاراً. لكن الغبار الذي في فمه يحتاج للماء لكي يمرّ. كان الوقت بداية المساء، والسيّاح اليابانيون عائدون على ظهور الجياد، يقودهم أطفالٌ دَبَغَت الشمسُ جلودَهم. بالكاد نظر إليهم ثم تابع السير محدقاً في بلاطاتٍ بالأرض. سمع دليلاً يشرح بالانكليزية ثم بالفرنسية، فائدة هذه البلاطات: « كانت هذه طريق الأنباط القديمة، ومن بعدهم الرومان... نحن الآن أخفض بمترين من المستوى الذي كانوا عليه منذ ألفين وخمسمائة عام!» ردد لنفسه هذا الرقم، ثم فكر بالنبطي العاشق. قال لنفسه، إذا كان الحب يعني العذاب، فلا بد أن النبطي، أميراً كان أم راعياً، ملكاً أم متشرداً، عرف الألم، واستودع حزنه وكآبته في هذه الصخور التي جَمَّدَت دموعَهُ. أوقفته هذه الفكرة. جفف جبينه ونقرته، اقترب من الطريق القديمة، مر بيده على الحجر، رأى وجوه أطفال ونساء شابات تمر من كوة نعشٍ إلى أخرى. أغمض عينيه فاختفت الوجوه. قال لنفسه: رؤيا أخرى. لم يُعِر الأمرَ انتباهاً وتابع سيره. شاهد امرأةً هرمة جداً، تجلس على مقعدٍ بدون ظهر. تلبس السواد كلياً، عيناها تبرقان، تطرد الذباب ببطء، مخاطبةً المارة: «تعالوا، اقتربوا، أنا أبيع الرمال، أبيع الزمن، أقدم جائزةً، بضع غرامات من الصبر، أرسم على ظلكم الخطوط الكبرى لأقداركم، أشتري الهواء، الغبار والصحة... تعالوا، أنا من قرن آخر، من صلصال آخر، لاأريد مالاً، لا أريد سوى ذرة ملح وقليل من الزعفران...»

نظر إلى الأعلى ولمح طرفاً من السماءِ، شديدَ الزرقة، نحـتَتْه الصخور. أحسَّ بالدوار. لم تكن السماء هي التي تـمـرّ، بل رؤوسُ الصخور هي التي تتحركُ كما في مسرحِ الظلال. أراد الجلوس لحظة، لكن الخيول كانت تثير الكثير جداً من الغبار وهي تُسقِط كرات جلّة يتصاعد منها البخار. كان يحب أن يمر بيده على الحجر.

الإحساس بالانسلاخ، الانفصال عن الأفكار التي تسبب له الألم، يساعده قليلاً. عندما وصل إلى نهاية الشق، استقبله الهواء المنعش الذي ردّه إلى نفسه. طاف ذلك النسيمُ الذي سبَّبَ له الارتعاش، كل أنحاء جسمه. كان كلما تقدم أكثر، قَلَّ تفكيره بِعايدة. مع ذلك، حين وجد نفسه أمام الكنز، تملكه الذعر: كان وجه عايدة بعينيها الكبيرتين وأنفها الصغير وفمها المكتنز، بابتسامتها الساخرة وشعرها الكَثّ، يقف بينه وبين المدفن الأثري. التماثيل التي صنع فيها الهواء حفراً دقيقةً، لم يعد لها رؤوس. قطعت رؤوسها بفعل الزمن. عندما غَضَّن عينيه رأى رأس عايدة يحط فوق كل منها. قام الزمن والهواء والرمال بعمل جميل، فامَّحت الوجوه، الأمر الذي جعل التماثيل حرةً، تأخذ ملامح الأبدية، ملامح الصمت العميق والغاشم. الوسيلة الوحيدة للكف عن رؤية وجه عايدة، هي الدخول إلى قلب المكان الأثري. دخل إليه مُتَلَمِّساً، مثل أعمى يمد عصاه بحثاً عن غرضٍ ما. كان المكان خالياً إلى حد اليأس، والجو فيه بارد. رحَّل الملوكُ كلَّ شيء. وقفَ في الزاوية الأشد ظلمةً، أخذ رأسه بين يديه وبكى بصمت. كان الزوار يمرون دون أن يروه، كأنه جزء من الحجر الأحمر. اختلط بالصخور ولم يعد موجوداً. كانت دموعه تسيل مثل الرطوبة على الجدران. لم يكن يعلم أنه سيبكي يوماً من الانفعال في قبر الملك النبطي أرتياس الأول، الشاهد المتأخر على حبٍ محطمٍ وهوىً ممزق. فكرَ بشجاعةِ أولئك العرب الرحّل الذين حفروا في الصخر علاماتِ الأبدية، التي كانت ملجأً للزمن، وصنعت من ذاكرتهم سماءً ثابتة، لغزاً، وكنزاً منيعاً. أخرج من حقيبته زجاجة ماء الكوثر وشرب؛ سال قدر من الماء على ذقنه، رقبته وصدره. سمع صوت عايدة الأبحّ، يغني لحناً رتيباً من الجنوب المغربي، حيث يحطم عنفٌ جافٌ، مشاعرَ الحنين. ابتسمَ. نهضَ. داعبَ الصخر مجدداً، وعاد إلى نهاية الشق. تقدم بعينين مفتوحتين حتى آخرهما، واكتشف الكنز . جماله الوحشي، عظمته التي تثير القلق، صمته الأزلي. ومثل الجميع، تراجع، تمتم بكلمات غير

مفهومة، كلمات منبهرة، مقاطع صوتية تسقط مثل حصى في مسيل، قطع من صور تتعثر أمام تعدد الألوان التي يتلون بها الصخر. أطراف أحلام تسقط في بحيرة من الماء الميت، دموع ابـتُلِعَت، صلوات بالكاد فُكِّرَ بها، قصيدة مـزّقَها عـنـفُ هذه الرؤيا إرباً، نَفَسٌ محبوسٌ، شلالٌ من ذكرياتٍ فقدت ضياءها، تمثال من الرخام يسير فوق الرمال، يمامة تائهة ترتطم بالآلهة النبطيين، جواد مـجـنَّح أسيـرٌ بين مسَلّتين، بدوي قزم يقود قطيعاًمن النوق المكمَّمة الخطم، طفل يوزع على المارة قوارير من الرمال من جميع الألوان، فراشة على ظهر ضب، خلية نحل داستها الأقدام، قليل من هواء الجنوب، حفنة من الرمل في الفم وحاجة هائلة للوحدة.

قام عدة مرات بتحريك يده لطرد جميع هذه الصور. شعر بالشوق لعايدة. رغب بالصراخ. قال لنفسه إنه سيفعل ذلك مرة واحدة في قمة أعلى مكان. هناك، حيث يطل على القبور الملكية، جالساً في منطقة الأضاحي، قريباً جداً من السماء، سيطلق صيحة الأعماق. الصيحة التي ستحرره من كل غمه، من وساوسه، وربما من جراحه أيضاً.

أخذ يتسلق الصخر. لم يكن يفكر بشيء. كان يتعرق. لمح، وهو ينظر بعيداً، قصر البنت، قصر الأميرة. ظن أنه بيت حارس المتحف. بدا له كلُّ شيء صغيراً من بعيد. على الطريق صادَفَ امرأة بدوية عرضتْ عليه زجاجةَ بيبسي كولا. شرب. لم تكن باردة. اكتشف في نفسه، هو الذي لم يكن رياضياً، قُدُراتِ متسلقِ جبال. وعَدَ نفسَه أنه حين يعود إلى بلده، سيمارس نوعاً من الرياضة، أياً كان، فقط كي يحافظ على لياقته، كي يستمر في نيل الإعجاب، ويظل قادراً على الإغواء. هنا، شعر أن ذكريات مفجعةً، قد داهَمَتْه مثل حرق. توقفَ، بصق في الأرض. لاحظَ أن لعابه ممزوج بشيء من الدم. كانت لثته تنزف مراراً. بصق من جديد، كان لعابه هذه المرة مبيضّاً. قال لنفسه إن عليه التوقف عن التدخين. لو طلبت عايدة منه ذلك لفعل.

لكن عايدة كانت في مكان آخر. وصل إلى القمة. استلقى على ظهره، وسط المنصة المركزية، المحاطة بالمقاعد الحجرية. كانت الشمس تسطع بقوة؛ لم يعد يحتملها. نزل إلى الحوض واستلقى بداخله في الجانب الظليل. كان يخيم صمت مخيف فوق هذه المرتفعات. سمع دقات قلبه. لابد أن دماء الحيوانات كانت تسيل في هذا الحوض، الذي هو أكبر من أن يكون قبراً. فكر بالموت، ببساطةٍ دون خوف ولا تـفخيم. تذكّر دفنَ والدِه، في يوم جمعةٍ من شهر أيلول. كان قد ذهب في العشية، ليختار موقعَ القبر. أصرّ على الشجرة وظلِّها؛ فكر بنفسه أكثر مما فكر بأبيه. قال لنفسه: الظل أفضل، لأجل الزوار... أما الميت، فلا شأن له بذلك! بل لقد تجرأ أن يقول ذلك للأسرة التي وجدت كلماته غير لائقة. كان طَبْعُ عايدة هو الذي يمده بهذا النوع من الجرأة... فلطالما قالت الأشياء بفظاظة. ولطالما أزعجه هذا العنف... لاتعرف عايدة الهدنة ولا العفو. إنها تريد الحقيقة، وهو لم يستطع أو أنه لم يعرف أن يقولها لها. فتركته. في أعلى الحوض تقف فتاة يابانية كي تُلـتَقَطَ صورةٌ لها. حين تراجعت الفتاة قليلاً إلى الوراء، سقطت فوقه. غالت اليابانية في تقديم الاعتذارات، بينما هو كان يضحك. تلك هي أول مرةٍ في اليوم يضحك فيها. كان شيئاً مضحكاً. أثناء نهوضه، لامَـسَ نهديها. كانا صغيرين ومتماسكين. ذكَّره هذا بالمرة الأولى التي قـبَّل فيها نهدي عايدة. كانت ترتجف من الانفعال، وكان هو جاثياً، يمر بلسانه على بطنها. هو أيضاً كان يرتجف. بالنسبة لها، كانت تلك هي المرة الأولى التي تمنح فيها نفسها لرجل. أما هو فلم يعد يذكر المرة الأولى التي مارس الحب فيها. جلس على أحد المقاعد الحجرية وراح يتأمل تمثال الأسد. أسد بلا رأس، منحوت في الرمال نحتاً هو من صُنـعِ الرياحِ أكثر مما هو من صنع يد البشر. أخذ يعود بالزمن إلى الوراء أملاً بلقاء أول امرأة فتحتْ له ذراعيها. بلا جدوى. تَذَكَّرَ بشكلٍ غائم، خادمةً ذات ثديين ضخمين كادت تخنقه يوماً، وهي تضمه إليها. حدث ذلك في فاس، في بيت قديم من بيوت المدينة، قِدَمُهُ بـقِدَمِ هذا الصخر.

بيت لايُعْقَل، بِقَدر هذا الأسد الذي يسمح بمرور الماء عبر أمعائه ويعيدها عبر فمه كما لو أنه نبع ماء.

شيء مثير للفضول، أنه كلما كبرت المسافة بينه وبين باريس، تعمق شعوره بالتوتر الذي يُفـتَرَض أنه يهرب منه. كانت عايدة في كل مكان، وتشغل كلَّ حيـزٍ وكلَّ صورة، كل ثانية من ثواني هذا الهروب. أدرك أن المسألة ليست مسألة ابتعاد. يقولون: «تغيير الهواء»، ولكن هذا لا يعني أي شيء في حالته، وليس له أي تأثير على هذه الحالة. على العكس تماماً، فهو كلما ازداد انبهاراً واندهاشاً أمام هذا القدر من القوة ومن الجمال في البتراء، اتخذ حبه لعايدة أبعاداً عظيمة. لذلك قرر أن ينزل ببطء ويبوح بضيقه لـتـآكل الصخر. كان يأمل إدراك جميع الألوان التي يمنحها الصخر للعين في أوقاتٍ مختلفة من النهار. كان يرى شوقَهُ وهو يتحول من الأحمر الحار إلى الأحمر البرتقالي، من الأصفر إلى الأخضر، من الزهري الخُبازي إلى الزهري الصدأي، من البيج إلى الأبيض، ذاك البياض الغريب، المشوب والمرتعش، حيث يصبح الرماديُّ أزرقَ في انعكاس ضوء الغروب. آه لو كان بوسع الهوى أن يهاجر من حالة إلى حالة أخرى. لأن الصحراء قد تكون قَدَره، والماء احتياجه!

لكن الهوى يظل ناقصاً، غير منجز، مثل غرفة جنائزية هُجرت للريح.

تذكر أنه نسي أن يطلق صيحة كبرى. توقف عندما لمح المسرح. أحاطت به مجموعة من السيّاح الإيطاليين، ومعهم، على رأسهم، امرأة قصيرة ديناميكية، ترفع لافتة كتب عليها: *Viaggi de l' Elefante* . سمع المرأة تشرح لأشخاص يلهثون من أثر الصعود، كم كان هذا المسرح مهماً في مدينة البتراء: «حَفَرَهُ الأنباط في الصخر، في بداية العصر المسيحي، ثم رممه أجدادنا الرومان في حدود العام 108 بعد الميلاد. لسوء الحظ وعلى الرغم من التحصينات الرومانية، فإن الهزة الأرضية التي حدثت عام 383

قد جعلته غير صالح للاستعمال...». صَرَفَ النظر نهائياً عن فكرة الصراخ وتابع نزوله وهو يفكر ثانيةً بالإيطاليين الذين كانوا يتجشمون العناء في سبيل تأمل مآثر الأنباط والرومان.

من جديدٍ وقف أمام الكنز، وشعرأنه صغير جداً. أحس طنيناً في أذنيه، فقد توازنه فجأةً ووقع. هرع بدوي إليه وساعده على النهوض. لكنه ظل يشعر بالدوار حتى وهو واقف على قدميه. كان البدوي في السبعين من عمره، على الأقل. له وجه ضامر، بشرة نحاسية، نظرة عميقة، عينان شديدتا السواد، وأسنان كلها مذهبة، تمنح ابتسامتَه فتوةً غريبة. أخذه، باقتضاب، وبحيويةٍ، من ذراعه وقاده إلى خيمته، على بعد حوالى مائة متر من هناك. مدده، وقدم له شراب ليمون، قائلاً له: «الكوكا كولا تصل الشهر القادم!» شرب وشعر بتحسن. طرحت عليه زوجة البدوي أسئلة كثيرة: «من أين أنت قادم؟ هل أنت متزوج؟ كم عندك أطفال؟ أتملك سيارة؟ أتشرب الكحول؟ ماذا تعمل؟ هل أحببت البتراء؟ هل هي المرة الأولى؟ كم عمرك؟ لِمَ أسنانك ليست من الذهب؟ أتحب أن تسكن في مغارة؟ كم زوجة لديك؟ هل ذهبتَ إلى مكة؟ أتحب لون الصخر ساعة الغروب؟ أتريد البقاء هنا معنا؟ أتريد جملاً أم حصاناً؟ سأصنع لك الشاي، تشربه، تنام، وتحلم حلماً رائعاً!»

لم تدعه يجيب على أي من هذه الأسئلة. كان ينظر إليها ببلاهة وفي الوقت نفسه بعرفان. ومثل السحر، نام في الحال تقريباً وشعر بهواء خفيف منعش يلامس جسمه. إنه في أحسن حال. عاد طفلاً، يضع رأسه فوق ركبة أمه التي تبحث عن القمل في شعره. رأى نفسه في قمة المسرح وحيداً، في ليلةٍ، قَمَرُها نصفُ بدر. نزل الدرجات ببطءٍ، وعلى المنصة، لامَسَتْهُ بِذيلِ ثوبها واختفت في أحد القبور الرومانية. قام بحركةٍ كَمَنْ يحتضنها ويستبقيها. تولّد لديه شعور بأن الهواء قد أحدَثَ فراغاً في رأسه، وطردَ منه كلَّ مايجعله يعيش ويتفاعل. صعد الدرجات من جديد، خافضاً رأسه. جلس على حافة

الدرجة الأخيرة، وطلب العون من أخيه الأصغر، الذي مات صغيراً جداً ورُفِّعَ إلى رتبة ملاكٍ في الجنة. جاء الملاك، نزل من طائرة مروحية للجيش، حمله إلى الجهة الأخرى من المسرح عند جبل قبتة، حيث وضعه، كما يوضع صندوق. من هناك كان يشاهد المسرح بأكمله. لقد تاه، ولم يكن خائفاً. أسند ظهره إلى حجر وتأمل سماءً متضادةَ الألوان قليلاً. بقي هكذا حتى الفجر، حتى اللحظة التي أيقظه فيها كمال، الدليل، وهو يقدم له زجاجة ماء.

في أعلى جبل قبتة، عرف أنه مُحاصَرٌ بالصخورِ ولُغْزِها. صخور حفرها جنونُ الإنسان، أو حفرتها أحلامُ الزمن. صخورٌ تنتصب هنا، قريبة وبعيدة المنال، في متناول اليد وعلى مد النظر. شعورٌ بالنهاية. كان كمال قد اختفى ولم يكن هناك طريق من أجل النزول. حوَّم طائر رمادي فوقه وهو يزعق. أحس بالبرد. كانت نقاط من العرق تتلألأ فوق جبينه. راح يرتجف. كل جسمه كان يهتز بعنف، إذن تلك هي النهاية. رأى أنها مبكِّرة جداً وغير عادلة، لكن لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً. كانت السماء بيضاء، وأصبح الهواء غيرَ قابلٍ للتنفس. تراكمت الغيوم، وأدى أولُ قصفٍ للرعد، إلى تحريك البلاطة التي يجلس فوقها. جعلها قصفٌ آخر تنزلق قليلاً. تـشَبَّثَ بها مثلما يـتـشبَّثُ غريقٌ بِطَوف. انزلقتْ البلاطةُ أكثر فأكثر. كانت تتقدم كما لو أنها رُكِّبتْ فوق عجلات. أصبح الطائـرُ الرمادي أسودَ اللون. عاد يزدري به. أفْلـتَ عليه كرةً مخضرةَ اللون. واصلت البلاطة انزلاقَها مرتطمةً بحجارةٍ أخرى، أخذ بـعـضُها وقد أزيحَ من مكانه يتدحرج بسرعة. لمحَ مجموعة من الزوار يتراكضون. بذل كل قواه لكي يبقى متشبثاً بالبلاطة، وحطَّ ببطء على حرفِ صخرةٍ متقدم. لا توجد نأمة حياة في الجوار. تساءل عن أصل الأنباط، من أين أتوا ولماذا لم يعد لهم وجود. توصل إلى قناعة بأنهم أُرسلوا فقط كي يحفروا الصخر القاسي لقصورٍ غير قابلةٍ للسكن وأحلامٍ شاسعةٍ غير قابلةٍ للقياس، ثم رحلوا نحو آفاق مظلمة. هذه هيَ البتراء إذن: عناد الحجر وجنون بشرٍ جاؤوا من كوكب مجاور

لااسم له، ليعرضوا على العصور وعلى البشر معجزةً أزليةً ومُنـجَزَةً إلى الأبد.

الآن لديه كل الوقت لقراءة كتب علماء الآثار. أثناء سقوطه، تساقطَ قسم من شعره، وشاخَ بضع سنين. نظر إلى السماء. بدا له جبلُ قبتة مثل كتابةٍ كوفية على صفحة زرقاء. خيل له أنه يتعرف فيها على وجوهٍ، كانت سُحُبُ فاس ترسمها عندما كان طفلاً: شيخ بذقنٍ مدببة، يد ممدودة بستة أصابع، أثداء هائلة مليئة بالثقوب، جملٌ مضطجع على جانبه، نمر بلا رأس، ديك يعتلي رأس ساحر أعور، نجمة هاربة، شجرة بالمقلوب، عنزة معلقة من كرعوبها الأيسر، كرة ثلجية وحيدة تماماً...

من حوله، لا شيء سوى القبور. يطل القبر الكورنثي على ضريح القصر. حَثَّهُ صوتٌ أن يذهب أبعد قليلاً ويستغرق في التأمل فوق الضريح غير المكتمل. استقل الشارع المسقوف بعقودٍ على أعمدة. حيّا الأسود المجنحة، سار وهو يدير لها ظهره، حتى وجد نفسه أمام الضريح الكبير غير المكتمل. ركع، سجد، وأبقى جبينه قليلاً فوق الرمال، شعر أنه مضحك.

فَهِمَ أن كل شيء في هذا المكان واقعٌ تحت شارةِ غيرالمكتمل: القصور، الأضرحة، الحياة، الأحلام، وحتى نظرة الزائر. لم يكن بوسع قِصتِه أن تجد السكينة التي تحتاج إليها في مكان بهذا الشكل. كانت هذه الصخور لامباليةً بالعالمِ، منذ مايزيد عن الألفين والخمسمائة عام. شعر، وقد انسحر، وانبهر، واندهل، بأنه يصغر. كيف يقيس نفسه بهذه الأوابد المصنوعة من الحجارةِ المتمازجةِ، لغرضٍ أسطوري أكثر منه لغرضٍ واقعي؟ لم يفقد قسماً من شعره وحسب، بل فقدَ أيضاً بضع سنتيمترات من طوله.

قصته مع عايدة، ماتنطوي عليه هذه القصة من خصومات، ومشاعر معقدة ومن غمٍّ يسببُ له الأرقَ والشقيقة، أشياءٌ يجب أن تعود إلى مكانها. لم يكن لقصته أية صلة بالبتراء، بعد أن أمضى

ثلاث ليالٍ دون نوم، مناضلاً، عبثاً، ضد ألم رأسٍ، يبدأ من فقرة العنق، ثم يحفر، مثل إبرةٍ صدئةٍ، ثلماً وراء الأذن، ثم ينشر الألم في الجبين وفي الصدغين، فَهِمَ أنه سلكَ طريقَ الصحراء كي يعاني، كما لو كان مسيحياً، ويدفعَ ثمنَ لحظاتِ الضلال التي أمكنه أن يمر بها.

في الصباح، وضّبَ حقائبه وسافر إلى عمان، مروراً بطريق الملوك. شعر أن عليه أن يضع حداً لهذه الزيارة، أن يدوِّنَها في اللامكتمل. أن يسافر بسرعة، دون التِفاتٍ، وأن يحتفظ في رأسه بصدى انبهارٍ معلقٍ ولا ينضب. ستعيش البتراء في جسمه مثل انفعالٍ، مصدرُهُ كوكب آخر. عليه أن يسافر، أن يهضم، أن ينظم جميع هذه الصور، أن ينحّي مايتعلق بقصته الشخصية، ويفصله عن الحجارة الحمراء، ثم يستعد للعودة. لكنه هذه المرة، لن يعود بمفرده. سيأتي برفقة عايدة، التي سوف يعلمها الحب. سيأخذ دروساً مسائية عند عالم نفسي يساعدُه أن يكون نفسَهُ، ويستطيعُ منح هذا الحب، من جديد، قوةَ الاستمرار الهادئة، إلى حدٍ ما، مثل هذه الحجارة وهذه الصخور التي أحكَمَ البشرُ والزمن، تركيبها، والتي تعرف كيف تمثل قروناً من التاريخ. حُبُّهما سيمثل هو أيضاً، قروناً من الحب لأولئك الذين سيتوقفون أمام نصب تذكاري من الرخام سوف يكتب عليه:

مصيركَ مثل ظلِ النخلة، يتقدمكَ في كل مكان.

إنه طريقك وأثر خطواتك.

يحاصرك أينما ذهبت.

مرآةٌ، وضِعتْ على رمل أفكارك.

13

الحب في باريس

ما أن يقترب الربيع، «ذلك الفصل الحساس بالنسبة للأزهار الجميلة»، ما أن يبتعد البرد، ما أن تصير للجسم رائحة مداعبات الشمس الأولى، حتى تنزل نساء باريس إلى الشارع. دون تحفظ ولا تواضع زائف. ذكيات، مع لمسة صغيرة من الهشاشة الظاهرة والمسيطَرِ عليها. ما عدن بحاجة إلى خطابات وشعارات انتقامية. لقد انتصرت النسوية. في البرلمان وحتى في العقليات، يُعلِنَّ عن أنفسهن ويتباهين بوجودهنّ، جميلات، حرات، مقبلات على أحدث مستجدات الموضة، بشهية تُفزِعُ أو تُقلِقُ أكثرَ الغاوين استبسالاً. وباريس أكثر من أية عاصمة أوروبية أخرى، هي مملكتهن، معقلهن، أرض كل الرغبات. ضياء هذه المدينة، خاصةً في أوقات معينة من النهار، يزيدهن جمالاً وأيضاً غموضاً. والغموض لا يفسد من الأمر شيئاً، فسواء كن طويلات أو قصيرات، سمراوات أو شقراوات، غنيات أو متواضعات، ولدن هنا أو جئن من زمان آخر، فإنهن يتقدمن، واثقات من أنفسهن، وفي نظراتهن، بالنسبة لمن يعرف القراءة، تلميحات حبٍ وحزن. قد لا يكُنَّ مهيمنات، لكنهن لايكرهن ذلك عندما يستهان بذكائهن.

الرجل الذي قام بهذه المعاينة، بدأ يشعر بالخوف. لقد اقتنع أن نساء آخر القرن هذا، قررن هلاكه. إنه في الواقع، لايفكرفي هلاكه

الشخصي، بل في هلاك جميع الرجال الذين تَحَوَّلَ حبُّ النساء عندهم، شيئاً فشيئاً، إلى ضعفٍ، يضَعُهم يومياً أمام امتحان وعر. باح بما يكابده لأحد أصدقائه الذي ابتهج لاكتشافه أنه ليس الوحيد الذي يخوض معركةً خاسرةً سلفاً. المشكلة الوحيدة الجدية في حياته، ليست الانتحار أو الموت، بل كيف يحب النساء. إنه لايفهم شيئاً من قواعدِ لغتهن، التي هي لغة أجنبية بالنسبة له، ويصر على المضي قدماً في بحثه.

مشكلة مغوي النساء هي معرفة التكيف. ينقضي العصر بسرعة؛ وتتغير العادات، ولا تتخلى النساء عن شيء من شروطهن. ظنَّ، في فترة معينة، أن شبح الايدز سوف يكبح جموحه أو على الأقل، سيبطئ إيقاع غزواته. ولكنه، وقد تزود بعلبة كاملة من الواقيات، كان يشعر بالاطمئنان والجاهزية. فهو يعرف أن النساء متشددات على هذا المستوى. الشيء الذي أدى في كثير من الأحيان إلى إلحاق الضرر برغبته. يفقد الغرام شيئاً من إبداعه، حين تبرز في النقاش مشاكل أمنية. فننقلِبُ من الجمال إلى الخوف والغم والموت. هكذا، يُضَحَّى بالغرام في لقاء أولٍ، في سبيل ضبط الإجراءات اللازمة لمواجهة الخطر. مايمنع! لم تفقد النساءُ شيئاً من صَلَفهن، العنصر الذي له حصته من الإثارة، ورحن يخضن، بذكاءٍ حاد، معركةَ كلِ لحظة، من أجل أن ينتصر الحب على البهلوانيات الجنسية. لَزِمَهُ وقت طويل حتى يفهم ذلك.

يعيش دون زواج مع خلاسية جميلة، ويتبع نصيحة ستاندال التي تقول إنه يجدر عدم الإكثارمن رؤية الشخص الذي تحبه، والجأ إلى صُحبَةٍ جيدة، كي تتناول الشمبانيا. إنه يرتاب بالنساء ويتّهمهن بالتقلب. المسكين! يحدث له مع ذلك، أن يسيء اختيار الصحبة. إنه يفضل حالياً أن يحلم. حتى أنه يخاف من البقاء أسير هذا النوع من الحلم. إنه يعرف أن الأمر ممتع لكنه ينسى أنه فخ أيضاً. إنه يراها طويلة، أطول منه. تأتي دون استعجال، يسبقها

شعاعُ شمس، ترتدي تنورة سوداء ضيقة جداً وقصيرة؛ تستطيع أن تُجيزَ لنفسها ذلك، لأن ساقيها رائعتان. تسير بأناقة محسوبة، ولكنها في العمق، طبيعية: أناقة شخصٍ يتسكع لأجل متعة التسكع. ترتدي سترة ذات نطاق. دوران خصرها على قياس يديه. مرر أصابعه في شعر المرأة المتمرد. تحت السترة الحمراء، احمراراً خفـيّـاً، نهدان حُرّان، يمكن، بانحناءة بسيطة، أن نلمح حلمتيهما. حول الرقبة وعلى الكتفين، وشاح كبير جداً من الكشمير، عندما تُلقي به على كتفيها، يحرك الهواء، الذي يهب، كي يزدري نظرات الرجال. مرت بجانبه ولم تره. أعطاها اسماً: «الغدر». اسم العطر الذي يحلم أن يطلقه يوماً. «الغدرُ» ليس شيئاً شريراً؛ بل ليس حتى ضلالاً. مجرد نظرةٍ، أعطت الكلمات، غدراً، معنى الخيانة. ابتعدتْ. رآها من ظهرها. مؤخرتها رائعة تحت هذه التنورة الضيقة. عَرّاها بالطبع. صفعته. سقط عند قدميها، دفعته، نهض ثانية وحقد كالعادة على نفسه. اكتشف وهو ينظر إلى المرآة أنها صفعته. قليل من الدم فوق إصبعه. مـصّه، وانفجر ضاحكاً.

تلك التي جلست للتو مقابله، عبلاء فعلاً. عيناها كبيرتان سوداوان، لها تعبيرممثلة تراجيدية هاربة من أحد المسارح. فمها مكتنز، نهداها كبيران. قال لنفسه: إنها ثقيلة، ثم راح ينظر في مكان آخر. بينما كان يشرب الشاي، سرَّحت نظرها على خط بعيد. قال لنفسه: ليست هنا. نهضتْ كي تتصل بالهاتف. أرهـفَ سمعه. لم يطمئنه ما سمعه. فهي تتكلم بلكنة إيطالية وتُقسم أن تنتقم. تخلط الكلمات الرقيقة بالفظة من نوع: «أحبك ياحبيبي، وسأنتزع خصيتيك إن ضبطتك مرة أخرى تـ...» عندما عادت، لاحظ أنها تبكي. سال الكحل على خديها. ذكّرته بصديقةٍ لاتزدهر إلا في الدراما، تدعى مارفيزا. خشيَ أن تأتي إلى طاولته. شعر أنها أهل لذلك. سدد حسابه بأقصى سرعة وغادر المقهى دون إبطاء تجنباً لحدوث الأسوأ.

عمرها ثمانية عشر عاماً، تحمل اسم إحدى الآلهات ولا تحب إلا الرجال الذين في الأربعين. دقت بابه وطلبت منه شعلة. صدرها الفائض والمتماسك، مؤثر. عيناها الملونتان بالأخضر الرمادي تبعثان فيه الاضطراب. شعرها المقصوص قصة مربعة، على طريقة لويز بروكس، يجذبه. شعر برغبة جامحة أن يداعبه. قال لنفسه إنها ليست من النوع الذي يسمح لنفسه بكل شيء. إنها تحتاج بالأحرى للحب، لقصةٍ ومآسٍ، لمفاجآت وانقلابات. لايشعر أنه قادر أن يكون موجوداً في هذه القصة. دعاها لشرب الشاي. طرحت عليه الكثير من الأسئلة، أجاب بقدر استطاعته، دعته لمرافقتها إلى المسرح. هو لايطيق الذهاب للمسرح، لكنه وافق مبتسماً. حاول أن يصحبها بدلاً من ذلك إلى السينما، لكنها شاهدت جميع الأفلام التي يقترح مشاهدتها. أصابته رعشة من فكرة أنها ستسمح له يوماً أن يضع شفتيه على شفتيها. نظر إلى هاتين الشفتين، إنهما شديدتا الحمرة. وعيناها تضحكان طوال الوقت. يسميها أنستازيا ويعلم أنها هي أيضاً أقسمت على هلاكه. إنه يتوقع ذلك ويستعد له. يعرف أنه سوف يُذبح ولا يعلم كيف ولا أين. طلب صديقَه وكاتمَ سره، الذي أكد له الانطباع العام: «أنا أيضاً لدي الشعور نفسه؛ ولدي شعور بأن الأمر سيحدث بصورة مخيفة؛ علينا أن نصلي للسماء بأن تمطر؛ هذا هو أملنا الوحيد، فالربيع هو الذي يعطيهن هذه الأفكار القاتلة؛ أمر طبيعي، الجمال بحاجة للتنفس، لارتكاب بعض الجنح، ونحن سُمِّينا لنكون ضحايا ممتازة. أنت تكلمني عن أنستازيا، في حين أني نجوت للتو من رمية سكين! لا توجد شفقة ولا رحمة! جورج، تلقى زجاجة كوكا فوق رأسه. حين ارتدت عشيقته وشاحها، حُمِلت الزجاجة مع حركة الوشاح الواسعة، وأصابت رأسه. إننا هالكون، ويجدر بنا أن نعرف ذلك. أنا الذي كنت أنوي أن أجعل من ميرابيل، طالبة البكالوريا، واحدة من تلك المخلوقات ذوات الشفاه المكتنزة والرأس المليء، القادرات على إغراق باريس بأسرها! لقد تبين لي أنه كان لدى ميرابيل عشيقان، وربما عشيقة أيضاً!»

في الطابق الأول من مقهى لو فلور، كثيراً ما تأتي عارضات أزياء للنقاش مع أشخاص يعملون في المهنة. يحدث أيضاً أن يلتقطن فيه الصور. تبدل النساء ثيابهن أمام أعين المستهلكين. ليس لهذه الممارسةِ، صلةٌ بِهَوَسِ التلصّص على المشاهد المثيرة، إذ لم يعد هناك لغز ولا سرّ. تعطي ممثلاتٌ مواعيدَ فيه. وبعد أن يمسحن مكياجهن عن وجوههن ويرتدين ملابسهن العادية، يمررن، دون أن ينتبه إليهن أحد في أغلب الأحيان. مقهى لوفلور ليس مكاناً يُتفق فيه على مواعيد، بل مكاناً يُعنى فيه بمواعيدَ، اتُّفِقَ عليها في مكان آخر. إنه يشعر هنا بالأمان. تمر الفتيات، يقعدن طويلاً، يثرثرن، يخلعن ثيابهن، يرقصن، ثم يختفين. يطيب له أن يعود للتفكير بتلك الممثلة البرازيلية التي جاءت إلى باريس لمدة ثلاث أسابيع، لتصوير فيلم. عاش معها حالة اختلالِ أمنٍ تامة. كان ذلك هو الحد الذي يطفح عنده الغرام. المرة الأولى التي وقـفَتْ فيها ببابه، خطأً، ترددتْ قبل الدخول، ثم قالت بلكنةٍ دوَّخَتْهُ: «ألستَ سكولوفسكي؟ هل أستطيع الاتصال؟» وضعت حقيبة يدها، نزعت معطفها، أشعلت سيجارة وهي تتصل. لاحَظَ مؤخرتها الصغيرة التامة، لاحَظَ شعرها، شعر اللبوة المولدة، حركاتها الواسعة والأنيقة. لم يكن الرقم الذي طلبته يجيب. انصرفت قائلة: «إلى لقاء قريب جداً!» عادت بعد ثلاثة أيام ومعها زجاجة شمبانيا. في المرة الأولى، مارسا الحب واقِفَينْ. وكما لو أنها تمثل فيلماً، قالت له: « أنت لست فرنسياً! لابد أنك أفريقي أبيض البشرة...» أجاب: «لا، أنا باريسي.»

الحب كما في رواية، مثل فيلم، مثل أغنية حنين قديمة. الحب مثل صباح ضبابي وندي، محتشم مثل جريمة عاطفية، مجنون مثل امرأة ضـيَّعت ذكرياتها. الحب في باريس يتخذ أحياناً، ملامحَ شِدَّةٍ، أو مصيبةٍ لم تُواسَ. كان يقول ذلك لنفسه وهو يفكر بجميع تلك النساء الجميلات المستجيبات، الخفيفات، القاتلات، اللاتي يتسكعن على أرصفة السين، واللاتي سوف يَعُدنَ للنوم وحيدات هذا المساء. راح يُجري الحسابات وينظم الإحصاءات، ثم تذكّر أنه في الثانية

التي يجري فيها حساباته، تعيش امرأة أحلى لحظات نشوتها الجنسية القوية والمذهلة، إلى درجةٍ تفقد معها رشدها وتخنق حبيبها.

حين تمارس الحب، تغمض عينيها وتتكلم خليطاً من البرتغالية والأسبانية. تطلب منه أن يكلمها بالعربية. تقول له: «الحب في باريس، يمارس بعدة لغات!». انتهى التصوير، فبقيت بضعة أيام زيادة، منزوية معه في فندق صغير. منحته كل جسدها. ومثل مراهقة، قصّت خصلة من شعرها، ألصقتها على بطاقة بريدية وأرسلتها له مع هذه الكلمات: «*في باريس فقط، أصل إلى رعشات تُفقِدُني صوابي، ربما يكون لكَ يدٌ ما في الأمر. ولكن كن واثقاً من أن هواء باريس الملوث، هو أكثر ما يثير شهوتي.*»

لَزِمَهُ وقت طويل كي يتعافى من هذه المغامرة الجنسية المحضة. جلس على شرفة مقهى، وراح ينظر الآن إلى الفتيات بتجرد. جميعهن مختلفات، قادمات من شموس بعيدة. يعجبه في الأفريقيات تماسك النهود والمؤخرات المكورة؛ وفي الآسيويات، تعجبه جداً القامة الشفافة؛ وفي المغربيات، يهيم بالشهوة المجنونة التي يُبدينها ماأن يبدأن بالتحرر. يفضل في الفرنسيات، جانب اللعب، الذي لم يكد يَفسَد؛ إنه عاشق لجميع النساء، عاشق أبدي وخاسر دوماً.

14

الألم... شكوى جميلة

ذلك اليوم، بسبب ضوء مفاجئ وفائق، عرف أن الموت ليس شيئاً. نهض بِنيَّةٍ ثابتة، بأن يعيش من الآن وصاعداً، مُخاطِراً. ماذا يفعل من أجل الكف عن التفكير بصورِ تلك الجثث الأفريقية المغطاة بالعفن، والتي كان يحملها النهر؟ كيف السبيل لمنع مناظرِ جثثٍ أخرى تُركتْ بدمائها في الثلجِ، من التتابع في رأسه. كان يستمع إلى الأخبار وهو يتهيأ للخروج صباحاً. هل كان الإنسان عنيفاًعلى الدوام؟ يالها من سذاجة! أليست الحاجة إلى الحرب، والرغبة في إذلال الجسد مدونةً في الجينات؟ لإبعاد هذه الصور المشؤومة، راح يعد الأشهر ثم الأسابيع التي تفصله عن عام 2000 . ألفان وسبعون ليلة. ثم انفجر ضاحكاً. يبدو أن نهاية القرن تستنفر أكثر الضمائر حَزَناً. مازال الغمُّ الذي صاحَبَ الأيامَ الأخيرةَ، حاضراً، مثل وعدٍ، عند خط الأفق، حيث تمر منذ أقدم عهود التاريخ قافلة الجمال ثقيلةِ الذاكرة نفسها، المحملة بالمخطوطات المستعارة من مكتبة الاسكندرية، قبل الحريق مباشرةً. بين هذه الكتب، تذكَّر المخطوط الذي عثر عليه في سرقسطة. لِمَ ليس في فانكوفر؟ تخيل عندئذ مخطوطاً مدفوناً في جنان صبا، القصر الذي تحول إلى أطلال عند مخرج مراكش. يُعَدُّ هذا المخطوط الذي يعود للقرن الثامن عشر، كنزاً. جمع بطريرك، قبل وفاته، أولاده الاثنين والخمسين، وأحفاده

المائة وثلاثة، وأعلمهم أنه بدد ثروته في إعالة نساء طائشات وبعض المتشردين المصابين بالصحو والجنون؛ ولكنه ترك لهم كنزاً لايقدر بثمن في البيت القديم. رفض أن يقول المزيد عن الموضوع. وكان من واجبهم هم، أن يعثروا عليه. بعد وفاته، راحوا يحفرون ويبحثون. خُرب البيت واختلف الورثة. وكانت فتاة صغيرة، هي من اكتشفت المخطوط. قالت: «عثرت على الكنز!» تلقتْ صفعةً من أبيها الذي شرح لها أن الكنز يجب أن يكون قطعاً ذهبية وليس أوراقاً كَتب فيها علماءٌ مجموعة من الحماقات. بكت الفتاة الصغيرة ضامَّةً إلى صدرها رزمة الأوراق التي اصفـرَّت من أثر التراب والزمن، وراحت تقص معاناتها عند قبر جدها.

قال لنفسه، إذا لم يكن الموت شيئاً، فما سبب هذا الوشاح الأسود الذي يجلل أحلامه؟ لماذا تحوم هذه الظلال الرمادية حول سريره، لاهيةً بحبات مسبحة من الكهرمان، مرتلةً أناشيد مبهمة؟ مضى عليه زمن طويل وهوينام نوماً سيئاً. كانت الليالي تنطوي على شيء ما، أخضر مُزرَقّ، كانت رطبة أحياناً وجافةً أحياناً أخرى، وكانت بشكل خاص لاتنتهي. دَلَفَ في نفق طويل، ومعه قنديل زيت، كَمَنْ يمثل فيلمَ رعب بريطاني، كان يكلم نفسه بإنجليزية تامة، هو الذي لم يكن لديه أي ميل للغات. كان يُعِدُّ لياليه مثلما يعد حِرَفـيٌّ مادته. يضع نفسه في حالات جيدة طيلة النهار. يقول إن المباحثات مع الليل يمكن أن تبدأ مع غروب الشمس. كانت تتملكه فكرة الموت في نومه، ويهمس له صوت مألوف: «الموت هو مثل أن تذهب للنوم... وقد غلبك النعاس.» كان واثقاً من أنه سيسمع هذه الكلمات أكثر من ألفين وواحد وسبعين مرة.

ماهو الشيء الذي كان يستبدُّ به أكثر من غيره؟ أهو الموت؟ لا، فقد كان موجوداً مثل قطعة أثاثٍ تتقدم ببطء شديد، إلى أن يأتي اليوم الذي ستسحقه فيه مُدخِلَةً إياه في الجدار، محولةً إياه إلى حجر

ورمال. كان يعتني جيداً بقطعة الأثاث هذه، يلمعها، ينظفها مثلما ينظف جِلْداً خاصاً. إنه لم يكن يهاب الموت حتى لو أصبح ظِلُّهُ مُهَدِّداً. كان موت الآخرين يغيظه، يغضبه، خاصةً عندما يحدث بالخطأ أو بعملية قتل. في اليوم الذي قتل فيه الطاهر بن جاعوط - 26 أيار 1993 - على يد أحد المتعصبين في الجزائر، شلَّهُ ألم عظيم ممزوج بغضب. كان اختفاء الكائنات التي يحبها يستبد به، مثلما تُقلِقُهُ حالاتُ سوء التفاهم التي يمكن أن تظهر بين الأصدقاء. عبثاً اعتبر الصداقة دِيناً. لم يشعر قط بالأمان. كان يخاف ألا يستطيع إفهام نفسه جيداً بسبب أخطائه الكثيرة. أهو الحب إذن؟ إنه ورشة خساراته وأوهامه. كان يظن أن بإمكان الإنسان أن يحب دون أن يمتلك، أن يخلص لنفسه دون أن يكون استئثارياً، أن يتقاسم اللحظات والأشياء والمتع البسيطة، ثم ينسحب إلى عزلته. لقد أساء الحبُّ إليه. يحتفظ من حبه للنساء المغربيات بذكرى معركة لا نهاية لها. لم يكن يحب العنف ولا النزاعات. كان مخطئاً بالطبع. كان يلوذ بالعمل ويفضل الصداقة. وبهذه الطريقة يصون نفسه، معتقداً أن خطر إصابته بجرحٍ، أو تعرُّضِهِ لخيانةٍ، كان أقل.

كان الراديو يعطي معلومات أخرى حول الرياضة والطقس. لم يكن يحب المباريات الرياضية ولا النشرات الجوية. كان يغضب عندما يحدثه أحد عن الطقس. فتح النافذة وهو يرتدي ملابسه، وراح يراقب السماء التي لاغيوم فيها. كانت باريس تتحول إلى مدينة صعبة. لم يكن يحبها إلا في الربيع، لأنها كما يقول : «تمتاز في هذا الفصل بأنها تجعل النساء أجمل، والرجال أقل فظاظة». كل مرة يشتري فيها صحيفة، كان يرغي ويزبد. فهذا الكشك مثل غيره في هذه الأحياء السياحية، يعلق لافتة كتب عليها: *هنا لانعطي معلومات. توجه إلى المترو: توجد خارطة!*

كان يبذل جهوداً كيلا يفقد عادة قراءة صحيفة على الأقل في

اليوم. لم يكن أبداً يـفـوِّت صفحة الوفيات. كان يطوف فيها بسرعة، يحسب، حساباً ذهنياً، متوسط الأعمار، ويشعر كل مرة أن النحس قد وفَّره. في ذلك اليوم الموافق لِـ 29 نيسان، كان المتوسط 66 عاماً. هل كان عليه أن يضيف المائة ميت الأوائل في اليمن والخمسمائة ألف ميت الرونديين؟ كيف كان له أن يعلم أن بحيرة فيكتوريا، وحدها، في رواندا، كانت تستعد لـتـلـقّـي 25467 جثةً حملها نهر آكاجيرا؟ كثير من الأجساد المغفلة، المنتفخة، جثث سوداء شَحُبَتْ، وقد فَرغَتْ من دمائها، كائنات قتلت أثناء نومها أو أثناء فرارها، دون أن تعرف لأي سبب يقدمونها أضاحي للنهر.

إذا لم يكن موته شيئاً، فإن موت الآخرين كان يسعِّر غضبه. لم يعد يريد التفكير بالعالم الذي يغرق. تمنى كثيراً أن يجد الأمر عادياً أو طبيعياً؛ وتمنى حتى أن يصبح لامبالياً، مثل بعض الأطباء الذين يعتادون على لَوْم الآخرين وألمهم. لم يعد يريد التفكير بالجزائر. لكن هذا البلد كان يعيق أيامه ولياليه، هبط عليه فجأةً، بعنفه ومصائبه وأطفاله الراكضين في الشوارع. ماالعمل حتى يتصالح هذا المجتمع مع نفسه؟ قال له أحد الأصدقاء: «هذا عادي. الجزائر تعيش الآن حالة ولادتها كأمّة. يجب أن تمر عبر الشقاء، ولن تخرج منه إلا بعد أن تستعيد هويتها؛ الآن هي ليست على مايرام، لقد تلقت الكثير جداً من الصدمات، من زمن الاستعمار، ثم الحرب، وأخيراً الحزب الواحد...» وماذا لو وقعت في الشمولية المطلقة والعمياء؟ وماذا لو قامت المحاكم التي تسمى شعبية، وراحت تعدم الأبرياء؟

2071 يوماً. أي: بضعة أشهر. الزمن يمضي، ويتسارع كل شيء. يجب مغادرة هذا القرن بقدرٍ أكبر قليلاً من الكرامة. لقد دشَّنَهُ أجدادنا بصورة سيئة للغاية، إلى الحد الذي يجعل من واجبنا أن نتجنب أن نكون بمثل قسوتهم. يكبر الغمُّ ويحتل الحيز كله. يبتلع الهواء ويترك على الجدران، آثاراً رمادية أحياناً، وأحياناً أخرى سوداء.

تكونت لديه مع الزمن قناعة: الناس لايتغيرون أبداً. لِمَ التقاتل إذن؟ لمَ الكتابة والنشر؟ كان يظن من قبل، أن الحب يغير الكائنات، وكذلك تجربة الموت. في الظاهر. في الظاهر وحسب. كان يحمل هذه الفكرة في داخله مثلما يحمل الشاعر الانتحار في عروة زره. كان يشعر بالارتياح. الآن وقد اقتنع أنه لاشيء ينتظر من الآخرين، وخصوصاً من الأقرباء، الآن وهو يظن أنه يعرفهم جيداً، شعر أنه حر. لم يكن ينتظر ذلك النهار، الجمعة، الواقع في 29 نيسان لكي يشعر بالارتياح والجاهزية، مستعداً للوقوع في الحب، وإن لم يكن سوى نهار واحد، أو ليلة واحدة. مستعداً أن يصاب بالدوار لمجرد التفكير بامرأة قد تتقاطع نظرته مع نظرتها في بهو المطار. التفكير بها ولا شيء سواها، دون معرفة شيء عنها، دون معرفة شيءٍ، خاصةً عن ماضيها أو عن حاضرها. سوف يتخيلها بملابس ودون ملابس. سيرسم لها نهدين تامَّين. سيشمُّ رائحة شعرها، ويداعب بطنها. ستطوف شفتاه جسمها. ثم ستختفي الصورة، مثلما يحدث إثر عاصفة. بعدها يدير ظهره للعالم. يبكي بصمتٍ، في قلب الوحدة والعجز.

كان يحب وحدته. يحاول بكل الوسائل أن يحميها. كان المقربون منه يجدونه غريباً ويسخرون منه. لم يكن يستطيع إقناعهم بأن الوحدة حاجة، ضرورة. كان يترك أحياناً بضع كلمات على مائدة الطعام، أو يلصقها على مرآة الحمام: *أَحِبَّ وحدَتَك واجعلْ الألم الذي تسببه لك، صوتَ شكوى جميلة. ريلكه*. كان يحدث له أن يعيد قراءة *رسائل إلى شاعر شاب*، ويتمسك بإرادة الحياة، حيث لم يكن يوجد سوى الأسى والخيانة والشراسة.

كانت جميع هذه الأفكار تتدافع في رأسه، في أقل اللحظات ملاءمةً لاتخاذ قرار. قرار خطير: مساعدة أقدم صديق له على الموت بهدوء، اختزال آلامه بتزويده بحبة الدواء الصغيرة التي ستضع حداً

لِصلعه. كان يخشى هذه اللحظة منذ زمن طويل، هو الذي كان طوال حياته يُثني، حين يَنْصَبُّ الألمُ بضراوة على الجسم ويدمر الوعي، على الموت الطوعي، كتحررٍ حقيقي. لم يعد يحتمل رؤية صديقه، مشوهاً من العلاج أولاً ثم من الألم، وغائباً في شبه إغماءةٍ بسبب الأدوية. كان أثناء لحظات الصحو النادرة، يطالب بـ «موتٍ لطيف» مثلما تخيله مع صديقه في الأيام التي كان متمتعاً فيها بصحة جيدة وحياة مليئة بالوعود.

فكر ثانيةً بوالده الذي فَقَدَ عادة الكلام وهو على سرير المستشفى، وبدأ يشير بيده طلباً للخلاص. كان هو يشيح ببصره ليتجنب ضرورة إجابة هذا الطلب. كانت الآلام شرسة لكنها مختصرة. مات والده مستشيطاً من الغيظ، مغلقاً قبضته كما لو أنه تمنى أن يقول إن الموت أرحم من هذا الألم. فكر ثانيةً بِلولا، الأندلسية الشابة التي كانت تدور على دراجة في إحدى الساحات منذ صيف 36 ، في أوج الشمس.

مازال الموتى المجهولون يَطْفون فوق مياه النهر. كان المرض يعمل عمله التخريبي على جسد صديقه القديم. لم تعد العينان عينين، بل ثقبين هَجَرَهُما الضوء. لم يعد لجلده لون الحياة، فقد أصابه الإفراط في تناول الأدويةِ، بالـتَّلَف. وماعاد الصوت سوى حشرجةٍ، شرخٍ.

مانفع الحرية إذا لم نستطع استخدامها حين نكون بحاجة إليها، في لحظةِ مغادرةِ حياةٍ زارَها جحيمُ الألم؟ مانفع حريةٍ دون شجاعة؟ والأمر يتعلق الآن بشجاعته هو. أجّل زيارته إلى مابعد الظهيرة. حَجَزَ غرفةً في فندق، وأمضى بضع ساعات في عزلة مطلقة. كان بحاجة للهدوء وبحاجة لذلك الاختلاء بنفسه، لكي يتخذ قراره. فكّر في الواقع، بشيء آخر. قال لنفسه إن هذا اليوم كان تافهاً مثل كل أيام السنة. لكنه سلّى نفسه بالتنبؤ بعدد الزيجات التي

احتُفِلَ بها في العالم، هذا اليوم، الجمعة، وعدد الأنفاس الأخيرة التي سُلِّمَتْ، وعدد الولادات التي سجلت، وعدد الخيانات التي ارتكبت، والقبل التي تبودلت، والمداعبات التي قُطِعَتْ، والدموع المسفوحة، والصرخات المخنوقة، والصور المرسلة. عدد القطارات الواصلة في موعدها، ولحظات الصمت الحقيقي، والضحكات الصادقة، والأخرى العصبية. عدد الظلال المسمرة على جدار أزرق، والأزهار الذابلة، وحروق اليد، عدد الأعضاء المطعَّمة، والقلوب الممنوحة حتى آخر رمق، الحَيَوات التي أُنقِذَت، وطناجر الحليب التي نُسِيَت على النار...

لم يكن لهذا الجرد أي معنى. كان يسليه قليلاً، يمنعه من التفكير بملاءات المستشفى البيضاء، وَبالقبلة الأخيرة لصديقه الذي قد يصحبه في موته.

عند خروجه من الفندق، لاحظ أن للسماء لوناً غريباً، أصفر ممزوجاً بالرمادي. وأن هواءً قوياً يهب، ربما من الصحراء، لأنه كان يذري الرمال فوق السيارات. كان الهواء محملاً بقدرٍ من القذارات اضطره أن يضع نظارته ليحمي عينيه سريعتي التأثر. ثم، وكما في حلم من تلك الأحلام السيئة التي تحدث فيها الأشياء بحدةٍ تجعلنا نقتنع أن الواقع هو الذي يجتاح النوم، اجتاحته موجة حرٍ مفاجئة أجبرته على الجلوس على مقعد تحت واقية باص. مسح عرق جبينه. لاحظ أن المنديل مليء بحبيبات الرمل، وقال لنفسه: «الخلاص».

منذ بضع سنين، أصبح يرى ما سيحدث. لم يرغبْ أن يقول عن نفسه إنه «عرّاف»، لكنه كان يملك حَدْساً يُعْلِمُهُ بدقةٍ في معظم الأحيان، عن أحداث سوف تحدث، وكان بدافع التطيُّر، يرفض أن يصدق أحاسيسه، أو أن يوليها أهميةً. الآن، في بداية مساء الجمعة 29 نيسان، لم يعد هنالك شك. كان صديقه القديم قد تخلص

للتو من جميع آلامه. لم يعد بحاجة للذهاب إلى المستشفى. قال لنفسه إنه ربما سبقه طبيب أو ممرضة ببضع دقائق، وجاء، وقد رق قلبه من أجله، لمساعدته على الرحيل بهدوء. هو أيضاً شعر بـ «الخلاص». مشى بمحاذاة السين، والهواء والرمل يسوطان وجهه. شعر برغبة بالبكاء، لكن دمعة واحدة لم تسِل من عينيه المحمرتين من أثر هذا الغبار القادم من بعيد.

15

فساتين لم تُقفَل جيداً

في هذا اليوم، الأحد، الذي يُذَكِّرُهُ بأرض بلده المصدوعة، قَلَّ الهواءُ في غرفته وراحت الجدران تحاصره. كانت الحرارة الكثيفة والبيضاء، تحتل سريره وتزعج الأشياء. تدافعت صورٌ في رأسه، منبثقةً من المرآة، من الجدار، من الحصيرة، وأخذت مكانها في هذا المكان المغلَّف بالأسى، في هذا المنفى الشبيه بالغياب. حتى الترانزيستور راح يبثُّ من القرية. سمع رسالة زوجته: «أنا فطمة، زوجتك - الجميع بخير - الصحة جيدة - الأطفال يمضون العطلة الصيفية - لم تصل الحوالة بعد، لكن البقال يبيع لنا بالـدَّيْن - والدك ووالدتك وأخوك الكبير يحيونك - نحن بانتظارك - لاتـنـسَ هدية لابنة أخيك التي تتزوج...»

كان الماء نادراً فقررت إدارة المقر تطبيق مخطط تقشفي. كان يمكن أن يستمر الجفاف. لسنا في الساحل، ولكن يجب الانتباه!

ارتدى بدلة الأحد، ركب المترو، دون أن يعرف جيداً إلى أين يتجه. ذهب بعيداً، بعيداً جداً، حتى سان جيرمان دي - بري. الحي الذي لم يتسنَّ له الذهاب إليه قط.

كان هناك شيء غريب في الجمهور، وكان من العسير أن يحصل لنفسه على موطئ قدم وسط دوامة هذه الطغمة الملونة

والمعطرة. جلس على مقعد وراح يتطلع إلى المشهد. لم يكن يحدث شيء. أمام المقاهي مجموعة من الشبان يمثلون أنهم يعزفون الموسيقا، وشبان آخرون يبتلعون شفرات حلاقة، أو يمارسون بهلوانيات تدعو للرثاء بهدف تسول بضع قروش.

الشيء الذي استوقف نظره، لم يكن ذلك الاضطراب الفولكلوري، بل النساء، فقد كنَّ جميلات، خفيفات، نحيفات، شفافات، غيمات صغيرة ملونة، غزالات هاربة من حديقة، بالكاد لابسات. كن يمررن من أمامه مثل صور، يشرعن في خطوات رقص، مع ابتسامة خفيفة ويختفين بين الجمهور. تحت فساتينهن التي لم تُقفل جيداً، كان يستطيع أن يلمح، دون مجهود، نهوداً صغيرة برونزية، خصوراً نحيفة، سيقاناً جميلة... كان لديه انطباع من يقلّب صفحات مجلة نسائية، أو من يفتح قوارير عطر. تلك الأجساد الهشة، كانت ترقص وتغني في رأسه. جميع هؤلاء النساء كن يعْبرنه في دوار لايطاق.

نهض زائغاً قليلاً، وطعمٌ مر في فمه. استقلّ المترو من جديد. كان قد بدأ يفكر بموضوع الليل: من الممكن أن تجتاح هؤلاء النساء، اللواتي تُلازِمُهُ صورتُهن، غرفَتَه، في هذا الحر والأرق. لا، غير معقول! طمأن نفسه قائلاً: إنهن لا يعرفن أين أسكن...

16

ابن البلد

خديجة جميلة. أخذت من المغرب لون الأرض في الصيف، وزرقة الغيوم. ضحكة عينيها تروِّض الطيرَ الوقِح، لكن في نظرتها مرج من الحنان. حركاتها بسيطة متحفظة.

أنهث دراسة الطب منذ بضع سنين في باريس. تعرف معرفة جيدة، أبناء بلدها، العمال الذين أقصاهم الزمن عن وطنهم، وتناضل إلى جانبهم.

ذلك الأحد، اقترب منها، وهي تنزل من المترو، عاملٌ مهاجر، كان يحاول أن يسلي وحدته.

«أنت جميلة ياأختاه...»

ابتسمت خديجة.

« قولي يا أخت، أنت عربية أليس كذلك؟»

وافقت خديجة مع ضحكة صغيرة.

«قولي يا أخت، ياغزالة تحت القمر، أتتناولين القهوة مع أخيك المغربي... يوم الأحد طويل وحزين... ثم إن الآخرين لا يتكلمون... هيا تعالي، سنتحدث عن البلد...»

تدافعت في ذهن خديجة، كلمات وصور: الهجرة...الوحدة... الحنين... الشعور بالذنب... اصطياد الغواني... المنفى... الأسى...

العنف... العنصرية الاعتيادية... تبادُل الحديث، لمَ لا؟

«موافقة، شكراً على دعوتك.»

في المقهى تبادلا بعض الانطباعات حول العمل، المنفى، إجازة الصيف... ثم حلت بعدها لحظات صمت طويلة وبعض الحرج.

أخرج الرجل من جيبه ورقة نقدية من فئة العشر فرنكات، ووضعها بينِ نهدي خديجة. تلَت المفاجأةَ، ضحكةٌ كبيرةٌ مجنونة. أُحرِجَ الرجلُ، فقدَّمَ اعتذاره. طمأنَتْهُ خديجة. قَبَّلَتْهُ ومضت...

17

السيد فيتو يحب نفسه

عندما كان صغيراً، وكان يُسأَل عما يريد فِعله في المستقبل، كان يجيب دون تردد: «أريد أن أكون مشهوراً». وعبثاً قيل له إن الشهرة ليست مهنة. كان يكرر رغبته بقوة وحزم. كانت أمه هي الوحيدة التي، بدلاً من أن تصحح له خطأه، كانت تشجعه على رغبته، وتقول له: «لن تصير مشهوراً فحسب، بل ستصير غنياً أيضاً، لأنك جميل!» ، فيبتسم ويزدري من حوله. كان لديه مثلاً زميل صف يتمتع بقدر لابأس به من المكر وحسن التصرف، كان يعتمد عليه ليجعل منه أمين سره، وكان قد بدأ فعلاً بمعاملته كموظف صغير في خدمته: يكلفه بحمل حقيبته، وتوزيع الرسائل على الفتيات الجميلات. فصار هذا الزميل يُعامَل على أنه ممثل السيد فيتو.

كان تلميذاً لامعاً؛ بذكائه وقوة طموحه، واستطاع بفضل ثقته بنفسه، أن يُحرج الأساتذة، ويطرح أسئلة بارعة عليهم. كان ذكياً، إلا أنه لم يكن مجتهداً. أمر عادي. فكل شيء يكمن في الارتجال، في الحمية، وفي الظهور. كان، دون وعي منه، يحب المجيء إلى الصف دون مراجعة دروسه، ويتكلم بثقة أمام رفاقه الذين يفقدون القدرة على المتابعة. كان موهوباً فائقاً ضمن الحد الذي يتمكّن فيه من إخراج نفسه دوماً من أشد المواقف صعوبة. كان يتكلم بسرعة لأنه يفكر بالسرعة نفسها.

يتصرف مع الفتيات كأنه سلطان. يعاملهن من أعلى، يوفد سكرتيـرَهُ بمهام معينة من نوع «إلغاء موعد ما، بسبب الأشغال» أو «استدعاء الفتاة المسكينة التي اصطَفَتْها رغباتي من أجل عملية ضبطٍ للمشاعر». كانت الفتيات يحببن هذا النوع من الشبان، الذي يبدو أكثر نضجاً بكثير ممن هم في السن نفسه. كان يتحدث، بسهولة محيِّرة، عن تاريخ الفن، عن الأوبرا وعن فاغنر. كان يحب الرسم فعلاً، فيقوم عشية الإجازات المدرسية، بإعلام الأساتذة والفتيات المفتونات به، أنه ذاهب خمسة عشر يوماً إلى اللوفر. يقول: «هذا حد أدنى، إذا أردنا البكاء من الانفعال أمام لوحة لِرامبرانت». وفي الصيف يسافر إلى مدريد لزيارة متحف البرادو». وهنا يكون جدياً؛ فيقرأ كل مايجده عن الفنانين الذين يثيرون اهتمامه، ويجعل لهم بطاقات، يصنفهم ويتناقش مع الأخصائيين حولهم. طلب مرةً موعداً مع البروفسور هربرت شميب، الأخصائي الكبير في أعمال رامبرانت. بالكاد كان في الثانية عشرة من عمره. عندما رآه البروفسور قادماً، بالبدلة وربطة العنق، حاملاً حقيبةً سوداء، ظن الأمر دعابة. طمأنَهُ فيتو في الحال وطرح عليه أسئلة هي من الدقة بحيث جعلت البروفسور يدرك بسرعة أنه يتعامل مع شخص عارف.

كان حبه للفن هو المجال الوحيد الذي كانت جدّيـتُهُ فيه واضحةً للعيان. لم يكن يسعى لِلَعِبِ دور الخبير. كانت لديه رغبة حقيقية بالتعلم والفهم. ويعود إقبالُهُ على شراء كتب الفن، إلى تلك الفترة. كان يقتصد، يستدين النقود عَبْرَ سكرتيره، لتسديد ثمن كتبٍ، كان يُتِمُّ قراءتها في ليلة واحدة، ثم يصنِّفها بدقة متناهية في المكتبة. في العشرين من عمره، امتلك 8567 كتاباً مُفَهـرساً وِفق ترتيب أبجدي. في الخامسة والعشرين، احتفل بكتابه رقم عشرين ألف. كانت أمه في غضون ذلك، قد تحولت إلى سكرتيرة حقيقية. كانت في خدمته ولم تكن تخالفه قط. فمن جهة أخرى لم يكن هناك أحد سوى فيتو بالنسبة لها. قد ينهار العالم، ويمرض الأب، وتصاب ابنتها، الشديدة الجمال والرقة، بصدمة الحب، وتتعرض لحادث، كل

هذا ليس مهماً، المهم هو فيتو فقط. كانت تدرك من وقت لآخر، أنها تبالغ، فتَلْتَفِت بضع دقائق إلى ابنتها، لتعرف ماذا تنوي أن تهدي أخاها في عيد ميلاده.

عندما ألَّفَ أول كتاب له حول رسوم ميكيل أنجلو، استقدمت أمه أهم ناشر للفن في ميلانو وأعطته المخطوط. كان الكتاب جيد النوعية. شعر الناشر بالحرج من أساليب الأم، إلا أنه كان مسروراً لنشر كتاب مبتكَر إلى هذا الحد. جاء النجاح في الحال. ظهرت المقالات الأولى بسرعة لابأس بها. لم تكن الأم تـقـصُّها بل تحتفظ بكامل الصحف التي تتكلم عن ابنها. معلمه، وأستاذه، كان يحبه كثيراً. أما هو فكان لديه، مثلما لدى جميع موظفي الجامعة المثقفين، حسابات، عليه تصفيتها. ففي مناسبة عرض أعمال فنان من القرن الثامن عشر، يكرهه الأستاذ لأسباب غامضة، تجرَّأ فيتو ونشر في مجلة *Corriere della Sera* ، مقالاً مطولاً ذكياً في مدح هذا الرسام. أصيب الأستاذ بغضب مفاجىء، ولَفَظَ فيتو نهائياً. سبَّبَ ذلك بعضَ الألم لِفيتو، لكنه أتاح له فرصة الطيران بأجنحته الخاصة.

منذ تلك اللحظة أصبحت الشهرة ضرورة، حاجة حيوية. ألف كتباً ومقالات أخرى. أقر له الجميع بالذكاء، ولكنهم كانوا من وقت لآخر يجدونه مزعجاً، خاصةً عندما يظهر في التلفزيون. فَهِمَ أن تاريخ الفن ليس أسرع طريقٍ لتحقيق الشهرة. شرع في تشغيل استراتيجياته التحريضية. يَسهُلُ ذلك في التلفزيون، إذ يكفي احتكار الكلام والصراخ بصوت أعلى من صوت الآخرين، والسخرية من المذيع، والتفكُّهُ على الأقوياء، وتكون اللعبة قد نجحت. بظهوره المتكرر على الشاشة أصبح مشهوراً، ليس كما تمنى في خياله، ولكن بشكل مناسب لنرجسيته ولآمال والدته التي استمرت في جمع كل المجلات التي يذكر فيها اسم ابنها، واضعةً الصحف والمجلات في مرآب ضخم في منزلهم الريفي.

أصبح فيتو مشهوراً قطعاً، في ذلك اليوم الذي ظهر فيه على شاشة التلفزيون وأبلغ عن فساد أحد رجال السياسة. راحت المحطات التلفزيونية تتنازع عليه. وافق في النهاية على إحياء ساعة يومية في إحدى المحطات الكبرى.

مع تعزز شهرته، صار العمل الذي يتطلبه الوضع الجديد يفوق قدرة الأم. فاستعانت بسكرتيرة بدوام كامل. واجبها هو قراءة كل شيءٍ حتماً، كل الصحف التي تظهر في إيطاليا، والاحتفاظ بها إذا كانت تتحدث عن فيتو، مدحاً أو ذماً، وترتيبها في المرآب الشهير. كان هذا العمل اليومي منهكاً. كان عليها أن تسحب عدة نسخ من المقالات التي كتبها فيتو أو التي كتبت عنه أو ضده، ثم ترتبها بعد أن تجعلها في ميكروفيلم. كان يجب إثبات كل مايمس فيتو. كانت الأم تشرفُ، والأب يراقب هذا السيرك دون أن يجرؤ على قول كلمة. أما إليزا الجميلة، الأخت، فكانت تحاول أن تُدخِل روح الدعابة إلى هذا المزيج المعقد من النرجسية، ومن التركيز المـرَضي على فيتو، وجهه، علاقاته، مشاجراته، وتحدياته، الخ.

فيتو، المشغول جداً في روما، لم يكن يأتي، إلا نادراً، إلى بيت أهله. وكان بالمقابل، يتصل كل ساعة، في الليل كما في النهار. كان ينام ساعتين أو ثلاثاً. يأكل بسرعة وبشكل سيء. يعيش محاطاً بِجَمْعٍ من أمناء السر والمساعدين والأصدقاء. يده فوق الهاتف دوماً. يُملي مقالاته وبريده بالهاتف، ويخصص قليلاً من الوقت لشراء لوحات من القرن التاسع عشر. كل شيء كان يُراكَم في بيت الأهل. لم تعد الجدران قادرةً على حمل اللوحات من جميع المقاسات، ومن نوعياتٍ أياً كانت. كما كانت هناك منحوتات في كل مكان أيضاً. وكانت الأم تسهر وتحاول أن ترتب. لكنها نادراً ماتنجح في ذلك.

كان فيتو قد أصبح شهيراً بلا ريب. ظل يؤلف الكتب، ليس حول الفن، بل حول السياسة والحياة. أصبح ظهوره على الشاشة يُرتقب

أكثر فأكثر. كان يحكي عن كل شيء وعن لاشيء، ولكن دوماً بشكل موهوب، ببراعةٍ ودعابة. والسكرتيرة تسجل أقل صورة وأقل كلمة، والأم ترتب الصحف، والأخت تقرأ أشعاراً وتستمع إلى الأوبرا.

كان فيتو يحب النساء، والنساء يعبدنه. لكنه كان يفتقر تماماً للوقت لكي يهتم بهن. هل كان يمارس الحب؟ متى؟ أين؟ لم يجرؤ أحد على طرح هذه الأسئلة. تأتي إليه نساء جميلات كالحوريات، ويقبلنه في مكتبه وهو يتكلم بالهاتف. وحين ينهي اتصاله، لم يكن يعيد السماعة إلى مكانها، بل يرميها. كانت هناك دوماً يد امرأة حاضرة لالتقاطها. وحين ينهض، يحضن واحدة من تلك النساء، ثم ينتقل إلى أمر آخر. كانت حياته العاطفية لغزاً. لم يجرؤ أحد أن يتكلم عنها، وخاصةً والدته. عندما أصبح نائباً، ظهر في البرلمان بصحبة نجمة إيطالية من نجوم البورنو. إنها فضيحة، تَحَدٍّ. كان مسروراً بذلك المشهد.

إنه هو ذلك الرجل الذي هَرِمَ قبل أوانه، والذي سَجَنَ نفسه في مرآب بيت عائلته الريفي، والذي يقرأ بشكل منهجي، جميعَ الصحف التي تحدثت عنه قبل عشرين عاماً. ومنذ أن أغلق على نفسه هناك، لم يعد من حق أحد أن يكلمه. تُمضي أمه اليائسة وقتها في الرد على الهواتف وعلى الصحافة القلقة بشأن هذا الاختفاء العنيف لِفيتو. تجيب أنه عزل نفسه كي يكتب قصة حياته. في التلفزيون أُعيد بث برامجه. كتب آلاف المشاهدين رسائل تطالب بعودة فيتو. حاولت بعض النساء الانتحار. بل إن مظاهرةً سارت أمام مقر محطة التلفزيون التي عمل فيها. وفيتو غائب. لم يعد هناك شيء على مايرام. الشهرة تطالب به، وهو أصمَّ أذنيه عن سماع كل تلك النداءات، وغاص في الصحف، يُنقِّب فيها واحدةً واحدة. تُمَرَّرُ له وجباتُه، فوق صينية، عبر إحدى النوافذ. يغتسل في المرآب نفسه. لم يعد فيتو الشخص نفسه.

مضى على عزلته عدة أيام. لايتكلم، لايصرخ، لايُسمع هناك

سوى صوت الصفحات ذات الورق القديم. بعد ستة أيام، خرج من هناك، زائغاً، شاحباً، مترنحاً. عندما جلس، سُمِع صوت شبيه بصوت ورقٍ يُدعك.

حين فتح فمه، خرجت قطع من الصحف مع كلمات من شحم. ولمعرفة مايريد قوله، تُقرأ الكلمات بنفس ترتيب لفظها. صار فيتو رجلاً من ورق، صار صحيفةً تحتوي كل الصحف ولا تتكلم إلا عنه. استقر في المرآب على أريكة من ورق وبدأ يعطي محاضرات عن حياته، عن طفولته، عن أمه وعن شغفه بِبينوكيو. كان الناس يأتون من كل مكان، يحملون الشموع والهدايا. إنهم مقتنعون أن فيتو قديس، قديس من ورق، لكنه قديس رغم كل شيء. تنظم أمه الزيارات، تتلقى الشكاوى، تعد وجبات الطعام وتتناقش مع المحامين. أما إليزا، فهي تدير مسرحاً كبيراً في ميلانو، لاتقدم فيه سوى أعمال الأوبرا.

18

الرجل الذي لم يكن يحب الأعياد

لدي اعتراف أريد أن أدلي به في هذه الأوقات التي تتجمع فيها كل العائلات المسيحية في فرح الحب البَنَوي، حول الديك الرومي وبعض زجاجات الشمبانيا المتفاوتة الجودة: أكره فترة الأعياد، خاصةً أعياد رأس السنة، ليلة الفصح وليلة العام الجديد. لاأحب أيضاً الأيام التي تسبقها، وتلك، الأكثر شؤماً التي تلي هذه الاحتفالات. لاأحب هذه الأيام التي تكون ماطرة في أغلب الأحيان، والتي يهرع فيها الجميع إلى المحلات الكبرى ويظنون أنفسهم مجبرين على شراء الهدايا، وشجرة ميلادٍ، وديكاً رومياً. أولئك العاطلون عن العمل، الذين يتنكرون في زي بابا نويل، هم مدعاة للسخرية. هم وحدهم الذين يصدقون الحيلة التي يتقمصونها. الأطفال يسخرون منهم. فقد حولتْ الألعابُ الالكترونيةُ، هذا الرمزَ إلى شيء يدعو للرثاء. تثير فترةُ الأعياد، التي يستنزف فيها الناس أنفسهم، بالاستدانة، من أجل التوهُّم بأنهم سعداء، لساعات معدودة، غضبي الشديد. تجعلني أكثر كرهاً للناس مما أكون عادةً. يرضَخُ الكائنُ البشري، دون احتجاجٍ، لقانون التجار، ويستهلك دون أي حساب أو بحسابٍ فائق. يستهلك ليكون مثل الجميع. عندما يصير العيد إجبارياً، تأخذ الوحدةُ، التي تُحتَمَلُ في الأوقات الأخرى، أبعاداً كابوسية، وتصبح مَرَضاً لايطاق. يجبُ أن يكون الجميع

سعداء. هذا أمر. لايمكن حتى المناقشة؛ لايوجد من تناقش معه منطقيةَ هذا الأمر. نعيش في ظل دكتاتورية النمط الواحد. الرسالة بسيطة: لايجوز أن تبقى بمفردك هذا المساء؛ أن تكون وحدك يعني أنك آخر الرجال. لفظتْك الأسرة وهجرك الأصدقاء. إذا كان المرء وحيداً، يجدر به أن يتناول منوماً وينام قبل الساعة الثانية والعشرين، فربما كان النوم أكثر رأفةً من المجتمع، وجلب بعض الأحلام الجميلة. العيد عام. الويل لمن يبقى أو (تبقى)، لسببٍ أو لآخر، أو حتى بدون سبب، وحده، ذلك المساء، لأن الأصدقاء نسوه(ها)، والأهل أهملوه(ها)، أو لأنه(ها) بلا أصدقاء وبلا أهل. يجب أن يعثر هذا الشخص على فتحةٍ باب أرضي ينزل فيه ويختبىء حتى نهاية الاحتفالات. يجب بناء ملاجئ مضادة للأعياد.

في هذه اللحظة التي يأكل فيها بلـدٌ بأكملِهِ، الطبق نفسه، ويشرب المشروب الفوّار نفسه أو الشمبانيا نفسها، في اللحظة التي ينسى الناس فيها النزاعات والديون والمرض والضجر، والتي يتبادلون فيها القبل وهم نصف سكارى، ويمارسون فيها مزاحاً سمجاً، ويؤمنون فيها أو يدفعون الآخرين للإيمان بمشاعر صادقة إلى هذا الحد أو ذاك، في هذه اللحظة، انـفَرَدَ رجلٌ بنفسه. أصدر مرسوماً بحَجـزِ كيانه الخاص في الكَرَنْتـينا. إنه لاينتمي، هذا المساء، لا إلى هنا ولا إلى هناك. إنه لاينتمي للعيد. ليست خلْقـتُهُ خلـقَةَ أعياد، لا عقلاً، ولا قلباً، بل خلقة جنائزية. تحديداً هذا المساء، الذي يرتاح فيه الشقاء، وقد أبعدتْهُ أبخرةُ الكحول ودخانُ التبغ، أخذَ الشقاءُ عطلة، لبضع ساعات فقط . والموتُ أيضاً. إنه يحوم وينتظر. تُتيح له نهاياتُ الأعياد، فرصةَ عملٍ كثير. المقابر تدخن والسماء مغطاة بالغيوم الكسولة والخيِّرة. هذا الرجل الذي انزوى بعيداً، خارج الصخب الليلي، له وجهٌ لاتستطيع أية ابتسامة أن ترتسم فيه، حتى ابتسامة المكر. له وجه عادي، جاهز للعواء، لأن عيد الآخرين يجعله في هذه الحالة. وحين يكون في هذه الحالة، يشعر أنه قادر على فعل أي شيء، وحتى، بل وخصوصاً، الجريمة.

لا، لن يقتل أحداً. وإن قرر فعلاً أن يرتكب جريمة، فسيكون ذلك ضد شخصه نفسه. إنه رجل كريم. لايريد أن يؤذي الآخرين، لكنه لايَحتمل أن يزعجه أحد. في حين أن أمسية عيد الميلاد هذه، تصيبه بالضيق في الصميم. ولايمكنه أن يحقد على الجميع بسبب ذلك، فيصب حقده على نفسه.

هذا الرجل هو جاري. حين أقول بأنني لاأحب أعياد رأس السنة، فإني أفكر فيه تحديداً، وأحس بضيقه. هذه هي الأيام التي يعاني فيها هذا الرجل. أرى ذلك، أسمعه، وأشفق عليه. إنه مع ذلك رجل شهم. أنا لست كاثوليكياً ولم أنشأ في هذه التقاليد. للمسلمين أيضاً أعياد تثير حنقي. عيد الأضحى مثلاً، الذي يضحون فيه بخروف. عيد يجعلني سيء المزاج. كل هذا الدم المسفوح في صباح واحد، كل هذه الماشية التي تُباد، تخليداً لذكرى ابراهيم الذي كاد أن يذبح ابنه، لتأمين الأضحية...جاري كاثوليكي، ينبع شقاؤه تحديداً من كونه يرغب أن يشترك في العيد، ولكنه لايستطيع ذلك. ظاهرياً، لم يدْعُهُ أحدٌ إلى عشاء الميلاد هذا، وهو لم يجد أحداً يشاركه هذه الوجبة. كل عام تستبدُّ به الشِدّة نفسها، وتجعله هشاً، نزقاً ومفجوعاً. يتغير وجهه، وتستطيل ملامحه ويغوص رأسه في كتفيه، وتتوارى نظرته وتصبح مشيته عرجاء. إنه رجل يتحول، تحت تأثير هذا الصخب، وتلك الأضواء التي تسحقه، في المدينة.

بسببه، أشرع أنا أيضاً، بالتوجس من هذه الأيام التي تُثـقِلُهُ أعيادُها. أنا، غير المعني، أو المعني قليلاً بهذه الأعياد، أفكر بهذا الرجل المسكين الذي لم يفهمْ بعد، أنه من الأجدى له مغادرة المدينة، وحتى مغادرة البلد، في هذه الأيام التي تصيبه بهذا القدر من التعاسة.

جاء لرؤيتي في أمسية عيد الميلاد. خجولاً، مهذباً، سألني، عند الباب، بصوت شبه مطفأ:

ـ أنت لاتحتفل إذن بعيد الميلاد؟

ـ لِمَ تسألني ذلك؟

ـ لديك أطفال، ولا أرى عندك شجرة ميلاد بتلك اللمبات الصغيرة التي تضيء وتنطفئ!

ـ صحيح! ليس لدي شجرة ميلاد بتلك اللمبات الصغيرة التي تغمز. إنها تمنعني من النوم...

دعوته للدخول. قال لي كما لو أنه يبرر كل ذلك:

ـ هذا لأنك غير مؤمن!

ـ تريد أن تعرف إن كنت أؤمن بأضواء شجرة صنوبر، عشية رأس السنة؟ لا. هذا لأني أكره الصنوبر. إنه شجر بلا لطافة ولا أصالة. كل أشجار الصنوبر تتشابه. فضلاً عن أنني لاأحب الأشجار خارج بيئتها الطبيعية. هذا ينطبق أيضاً على الحيوانات. أفضلُها حرةً في الطبيعة، وليست مسجونة في أمكنة ضيقة مثل شققنا.

ـ هل يفهم أطفالك كل هذا؟ ألا يطالبونك بشجرة الميلاد وبالهدايا في الأحذية؟

ـ لا. الهدايا، أقدمها لهم يوم ميلادهِم هُم، وليس يوم ميلاد المسيح. وهم ليسوا تعساء.

ـ حقاً! أنا لو كان لدي أطفال، لطمرتُهم بالهدايا في عيد الميلاد. لسوء الحظ، كل النساء اللواتي عرفتُهن، تركنني؛ ولم يُتِحْنَ لي أبداً فرصةَ فهْم سبب رحيلهن. كانت علاقتي بهن تدوم وقتاً قصيراً جداً... لم تكن تتوافر مهلة كافية كي أنظر في مسألة بناء حياة مع واحدةٍ منهن. حياة فيها أطفال، وعيد الميلاد وكل ماتبقى...

قدمت له عصيرفاكهة طبيعياً. شربه دفعة واحدة وراح يعتذر:

ـ لم أرغب أن أسبب لك مزيداً من الضجر...

لزم الصمت محرَجاً قليلاً، راح يتمتم، ثم قال لي:

- ماذا تقول في مشاركتي وجبة الديك الرومي؟...اشتريته جاهزاً، من محلات المونوبري... تعرف أن المونوبري يتحول إلى متجر للترف طيلة هذه الفترة؟... الشعب أيضاً بحاجة للترف، حتى لو لم يكن ذلك سوى مرة واحدة في العام...

- شكراً لدعوتك. أنا بصدد محاولة إصلاح جهاز التلفزيون من أجل الأطفال بالدرجة الأولى. أفضل القراءة، وزوجتي كذلك. لكننا لانريد حرمان الأطفال من الصور.

جثا على ركبتيه كي يفحص الجهاز، دون حتى أن أطلب منه ذلك.

- أهيَ الصورة أم الصوت؟ انتظر سأساعدك. لابأس بي في أعمال الإصلاحات المنزلية. في هذا البلد، أنت مضطر أن تصير ماهراً في ذلك!

نزع سترته وذهب لإحضار صندوق أدواته. تحفَّزَ الأطفال ونفد صبرهم. فقد اقترب موعد برنامجهم المفضل. بعد بضع دقائق، رأيت جاري قادماً في لباس العمل الأزرق، مبتسماً ومصمماً على إصلاح هذا الجهاز. أبعدتُ الأطفال وتحولتُ إلى معاون له. فتح الجهاز بمهارة. راح يفك القطع، واحدة واحدة، كمحترف. استغرق كلياً في هذا العمل وراح يدندن. عاد الأطفال يراقبونه. عندما رفع بصره ولاحظَ وجودَهم، مدَّ يده بمفتاح شقته وقال لي:

- خذ. افتح لهم الباب. التلفزيون في المطبخ، ويعمل تماماً. يلزمني بعض الوقت، ربما وقت برنامجهم. لايجوز حرمانهم من هذه المتعة.

أخذت الأطفال إلى بيته وعدت لمساعدته. الجهاز الآن مفكك بأكمله. وهو يشعر بالرضى. نهض. شرب كأس ماء، ثم تذكر أنه عيد الميلاد. رفع كأسه وقال لي: «في صحتك!». في هذه اللحظة وقعت سدادة زجاجة شمبانيا في المطبخ، محْدِثةً ضجة كبيرة، كأنها

رصاصة أُطلقت من النافذة المقابلة. سمعنا صيحات حبور، تـلَتْها أغنية. من مطبخي نستطيع أن نتبين أفراد عائلـتَيْ دوران وديبون، وهم في حالة هياج وصخب، يتبادلون القبل، يرقصون، يغنون، يصيحون ويـقَعون من السكر، أو من التعب.

ـ إنهم الجيران ـ قلت له ـ. ويحبون العيد جداً. إنها ليست سوى الزجاجة الأولى. سترى خلال بضع ساعات...

لم يُعلّـق. نظر إلى ساعته وعاد إلى العمل من جديد.

ـ جميع القطع بحالة جيدة. لابد أن العطل هو إما خطأٌ في التركيب أو الاستعمال. هذه الأجهزة التي تجعلنا نحلم أو نضجر، معقدة. سأعيد ترتيب كل هذا...

رحت أدور في الغرفة. طلبت مني زوجتي أن أدعوه للعشاء، وأنا لاأجرؤ أن أزعجه. أراه مستغرقاً وسعيداً بهذا الاستغراق، ومسروراً أيضاً، لأنه أدى خدمة، وكان مفيداً في هذا المساء الذي تتجسد فيه جميع الإحباطات. قررتُ ألا أتعشى وأن أنتظر حتى ينتهي. عاد الأطفال. مضت عليه ساعتان على الأقل وهو هنا. عاد الجيران للغناء. يظن المرء نفسه في نادٍ للمحاربين القدماء. فهم يصيحون، يضحكون، يصفقون بأيديهم، يفتحون النافذة وينادون الجيران. كل هذا الصخب لم يعرقل عمله. أعاد تركيب القطع بعد أن نظّفها. وتمَّ تركيب الجهاز ثانية. سيصبح هذا الصندوق، ثانيةً، صندوقاً سحرياً، ويعود لِبَثِّ الصور. وصلَ الهوائي بالجهاز. أدار زر التشغيل. ظهرت على الشاشة خطوط ظلال ونقاط تشويش. راح يدير أزراراً صغيرة في الجانب الأيمن للجهاز، ويضبط الصورة. لم أقل شيئاً. صارت الساعة الحادية عشرة. نام الأطفال ونامت زوجتي أيضاً. ضبطَ القناة الأولى، ثم الثانية، ثم جميع القنوات الأخرى. الصورة واضحة. الصوت كذلك. توجد صورة واحدة على جميع الأقنية: قس يحتفل بالقداس. وراءه شجرة صنوبر هائلة مُضاءة. الجو احتفالي رسمي. طلب مني جاري الذي تـعـبَ، السماح

له بدخول الحمام. غسل يديه. أطفأت التلفزيون واقترحت عليه أن يشاركني عشائي. قال لي إنه ليس جائعاً. ارتدى سترته، لَمَّ أدواته واتجه نحو الباب. هو الذي مدّ لي يده قائلاً:

ـ شكراً ياسيدي! بفضلك نجوت من ضيق شديد. لم أشعر بمرور الوقت. هذا رائع. أمضيت أمسية جيدة. غداً سأذهب وأضع أزهاراً على قبر أمي.

لم يدَعْ لي الوقت لأشكره. وجدت نفسي بمفردي في المطبخ مع طاجن دجاج بالليمون، وقد فتر. لم أستطع أن آكل. الوقت منتصف الليل، وأجراس جميع الكنائس تدق. لابد أن العيد في أوجِهِ. تصلني أصواتُ المدينة وصخبُها مضخّمةً. يلقي الجيران بالزجاجات الفارغة من النافذة. تعجُّ ساحة المبنى بالزجاج المكسّر. يقترب العيد من نهايته. القنوط الآن، أكبرمنه في بداية السهرة. غداً سينام الناس حتى الضحى. ستكون الشوارع مقفرة. وسأستفيد من ذلك للتنزه.

19

الحقد

في أحد الأيام كان هناك طفل قبيح. قبيح إلى درجة أنه نجا من الزمن، وكفَّ عن النمو. وباعتباره ليس صبياً ولابنتاً، لم يتمكن أحد من تسجيله في الأحوال المدنية.لم يُعطَ اسماً أيضاً. كان يقال له: الطفل. مثلما كان يمكن أن يقال الصغير أو الصغيرة. في الخامسة عشرة من عمره، شعر أنه محمَّل بمهمة واضحة: التدمير. ولكي يحقق هذا الولع، طالب بالأبدية، وحصل عليها. كان أبواه مسلمين صالحين، من الناس الطيبين كما يقال. لم يعد ابنهما ينتمي إليهما. هجر المنزل وعاش في الحقول مع الخفافيش وأهل الشؤم. كان يسمى أحياناً، عيشة الخفاشة، باسم طير كان يستخدمه السحرة لإيقاع الأذى بوساطة السحر، وأحياناً أخرى، حمار الليل، الذي يُلقي بكل ثقل جسمه فوق صدور الأطفال النائمين.

علم أني أستعد لرواية حكايته. دخل إلي على هيئة صوت قوي وحازم، ووجه إلي الأمر بالتخلي عن ذلك والاستماع إليه. لم يكن لدي خيار: إما أن أطيع أو أكون ضحية من ضحاياه. وباعتباري أحب الحياة، فضلت أن أتركه يتكلم. عموماً، هو في موقع أفضل مني لرواية حكايته بطريقة شريرة:

ربما كانت ولادتي غلطة. ولطالما سمعت أناساً يقولون: «هذا

الشيء ماكان يجب أن يكون موجوداً». كنت دائماً في غير مكاني، حيثما كنت. أعرف على كل حال أنه يفترض بي ألا أكون. أنا طفل مُعيق. أشغل حيزاً كبيراً. فجسمي التعِب، حتى إن لم يكن أكبر من غيره، ينتشر ويستأثر بالفراغ. لكن الناس ينظرون إلي شزراً، ولاأملك، بعينيَّ الحولاوين، إلا أن أبادلهم النظرة نفسها. كل شيء يتم شزراً. في الواقع، لا أحد يجرؤ أن يوجه لي انتقاداً. وأولئك، غير المطَّلعين اطِّلاعاً جيداً، ممن غامروا بالكلام معي بلهجة قاسية، مازالوا يذكرون السهام المسمومة التي رمتهم بها نظرتي وحدها. من حيث المبدأ، أنا لست شريراً، أنا أدافع عن نفسي، وحتى عندما لايفعلون لي شيئاً، أدافع عن نفسي، إنه تكتيك. ماكان يجب أن أكون موجوداً. ولكن منذ اللحظة التي أُلقِيَ بي فيها، على هذه الأرض الملعونة، وأنا أحاول أن أكون بمستوى هذه الغلطة، ولا أدع شيئاً يمرّ.

إذا كان لايفوتني شيء، فهذا لأن حضوري لايمضي دون أن يلتفت إليه أحد. أنا هنا، وبقوة، بجسد سيء الخلقة، ووجه دون لطافة وشعر دهني، يروق لي ألا أغسله سوى مرة واحدة في الشهر. أحب شعري عندما يصير أملس ولامعاً. هذا يعطيني هيئة المهنة التي أعمل بها، القناع اللازم لإشاعة الاضطراب والخوف. أتسلى بهذا الشكل، وحدي، لأن الأطفال الذين في عمري، استبعدوني منذ بدء ألعابهم. لم يكن بوسعهم التصرف بشكل آخر. دفعةً واحدة، اعـتُبِرتُ المستبعَد النموذجي. وافقني الأمر، فلكلٍ مكانه، ومكاني هو كل مكانٍ أستطيع أن أسبب الإزعاج والأذى فيه. من أين لي طاقة الشر هذه؟ اكتشفْ بنفسك. أنا أعيش عليها وأقول ذلك دون مواربة. هنالك من يولد من أجل مساعدة المحتاجين، من أجل الخير. أنا ولدت لنشر الشقاء. هذه هي وظيفتي ومبرر حياتي. أتنفس بفضل هذا الدم الأسود أو العَكِر الذي يسري في شراييني ويمُدُني بالأفكار المؤذية. يمكن أن أعرض خدماتي على الأشخاص الذين يخافون أن يكونوا شريرين. يكفي أن أظهر حتى أصيب أحداً بالعين وأسبب

التعاسة. مع ذلك، لست الشر المطلق. لم أصبح كذلك بعد. هناك من ينشطون لتغذية التعاسة، ويحتفظون في الوقت نفسه بوجوهٍ نظيفة ومهذبة. أنا لا أخفي شيئاً. أعمل بشكلٍ مكشوف. أنا صُنِعتُ على شاكلتكم. أنا ماصنعتموه مني. لا أكثر ولا أقل.

في البيت، أتيت على جميع الموارد. لم يعد أهلي يقاومون. إنهم يحملون الهزيمة على وجوههم. أنا هزيمتهم. إنهم لايعطونني شيئاً، وأنا لا أعطيهم شيئاً كذلك. هكذا، يُحَلُّ كل شيءٍ في الصمت، في هذه النظرات المتضايقة، وهذه التنهيدات العميقة.

فَهِمَ أخواي بسرعة أنني لايمكن أن أكون قريباً لهما. وأقلّ من ذلك أن أكون شريكاً. نحن غرباء تحت سقف واحدٍ، لايضحكون أبداً. طالما مَنَعْتهم من الضحك. بمجرد أن يشرع أحدُهم بابتسامة، أتدخّل. نظرتي تجمِّدهم. يكفي أن أنظر إليهم حتى يعود كل شيء إلى نظامه، بارداً ومتعذر الإصلاح. أنا لا أبكي. البكاء لايجدي شيئاً ولا يجلب شيئاً. إنه شيء لايليق بِقَدَري. لكي تبكي يجب أن تكون قد تلقيت قليلاً من العاطفة. وأنا لم أتلقَّ شيئاً منها قط. لا. لادموع. لاعواطف أيضاً. العاطفة تُخِلُّ بنظام الأشياء. وإن اضطررت للبكاء، فلن أفعل ذلك أبداً بين الآخرين، بل وحدي، منعزلاً، أو تحت الماء. ستختلط هذه الدموع مع الماء ولن أراها، فلا أكون قد فقدتها.

ولدت في الهلاك. هطلت مثل مطر سيء. المطر الذي لاننتظره، الذي نخشاه لأنه يُفسِد البذار. هذا شيء عرفته باكراً جداً. واضطررت، منذ المهد، أن أتخذ ترتيباتي: أوفر كل طاقاتي لأجعلهم يدفعون ثمن صدفةِ هذه الولادة، لأجعل الأبرياء يدفعون ثمن الصورة المشوهة لهذا الوجه، الذي لاشيء فيه بمكانه. نعم. وجهي مثل اللوحة المائية التي مرّت عليها ممسحة. إن لي وجهاً منحرفاً. كل شيء لدي منحرف، الجسم وكل مابداخله.

حاول إمام الجامع يوماً، أن يعقِّلني. كنت قد ألحقت أذىً كبيراً

بفتاة مسكينةٍ، تـهَوَّرتْ وعبّرتْ لي عن شفقتها. تكلم الإمام طويلاً. أنا كنت أبحث عن وسيلة كي أقلع له عينه. أدركَ في النهاية أنه يتعامل مع وحش. قال لي: «أنت طفلٌ فـقـدَ روحَه مع وصوله إلى العالم!». كان محقاً بالتأكيد. أعرف جسدي الخاوي، وأعرف أن الروح تصاب بالذعر من الخواء ومن الدبق. أوجزتُ تلك المقابلة بالتبول واقفاً، على جلابيته.

كان عمري عشر سنين، وكنت قد أوقفت برنامج انتقاماتي. كان أهلي الذين يزدادون يأساً أكثر فأكثر، يبكون. لم أضجر أبداً. فلدي الكثير لأعمله. الوحدة لاتضايقني، بالعكس، تسمح لي أن أمحّص في وسائلي. ينقصني الوقت. لدي قدر من الكراهية يُحـيـجُني لحياتين كاملتين كي أتمكن من صـبِّه. لكن الكراهية لاتلائمني جداً. لأنك كي تكره، يجب أن تحب، حتى ولو قليلاً جداً جداً. في حين أني لا أحب أحداً، بدءاً بنفسي. ماحلُّ هذه المعضلة؟ كيف السبيل لأن تكره دون أن تُنـفِق، دون أن تعطي؟ هنا تكمن الصعوبة بالفعل. سوف أكون مقتراً: سأقطّر الكراهية قطرةً قطرة. هذا مؤلم أكثر. سأوفر الأهل، ليس من الكراهية، فأنا لاأحبهم. سأدعهم يشهدون وهم مكللين بالعار واليأس، أعمال التخريب التي يباشرها سليلهم. الآخرون الذين لم يفعلوا لي شيئاً، أولئك الذين يمرون ولا يرونني، الذين يتوقفون وينظرون إلي لكي يشعروا بالدهشة من أن شيئاً مثلي يمكن أن يوجد، أولئك الذين يشعرون بالرضا عن أجسادهم، الذين لهم وجوه منتظمة الملامح، جميع هؤلاء الناس سيكونون ضحاياي. ولكن حذار! إنني لن أنفق شيئاً من أجلهم. سأقي نفسي قطعاً.

ولكن كيف يمكن إلحاق الأذى دون إعطاء شيء من الذات؟ إعطاء؟ أنا لاأعطي شيئاً. بل أدع الأشياء تنطلق من جسمي، كل مايمكن أن يلوث، أن ينشر النتن، كل مايخرج بصورة طبيعية. عندها أستقي مايمكن أن يوجِع. البصاق، البول، البراز. هذا لايكلف

شيئاً. بكل هذا، سأمنع البعضَ من العيش. سأندسُّ في حياتهم عن طريق إيهامهم ببعض النوايا الحسنة.

الشيء الخاص في منهجي هو: أن أعير أولاً، ومن ثم أستعيد. أستعيد بمجرد أن يصبح الأمر ممكناً. أنا لاأعطي أبداً. ألتصق، أفرض نفسي إذا لزم الأمر، وأجعل تنفسهم صعباً. تكتيكي بسيط: الدخول ببطء، إحداثُ الضيق، تحريض الشعور بالإثم، ثم العودة إلى الوراء وإظهار قليل من الرقة، فالانطلاق إلى المهمة من جديد... وهكذا حتى الجنون، وإن أمكن حتى الموت. أشعر بأنني أكثر قوة، عندما أكون أمام شخص لم يفعل لي شيئاً. أنجز المهمة وأطالب بدفع الثمن. أقاتل لأجل ذلك. يحدث (نادراً) أن أنظرإلى وجهي في المرآة. لاأكون سعيداً إلا حين تكون عيناي صفراوين من الكراهية.

ليست بشاعتي غلطة أحد، بل هي غلطة الجميع، وسأكرس كل حياتي لجعل الجميع يدفعون ثمن هذه العاهة. المعاقون لهم الحق بالمراعاة، ويُقبَلون في أنواع معينة من المهن. يتنقلون في سيارات صغيرة، ولهم مساراتهم الخاصة في الطرق، ويَلقون الاهتمام. أنا فكرت يوماً أن أطالب ببطاقة المعوق، لكن هذا غير ممكن، فأنا لاأشكو من شيءٍ، جسدياً. لا أجرجر ساقاً، وليس لدي ذراع ملوية، ولا لسان متدلّ. لا. كل شيء عادي. الشيء غير العادي، هو الغلاف، الأعمال النهائية، كما سمعت مرةً في مزاح ثقيل. أنا لا أمرض أبداً، وأنا مطمئن من هذه الناحية، وأستطيع أن أؤكد منذ الآن أنه لم يبق أمام الأطباء سوى أن يغلقوا عياداتهم. فأنا لن أمرض أبداً. لن أعطيهم قرشاً قط. أنا أقوى من المرض. أضحك عندما أرى جميع الناس الذين تصرعهم مجرد نزلة برد بسيطة. أنا لاأخشى شيئاً. المرض يخشاني.

في مدرسة القرآن، يصاب جميع الأولاد بالقمل. أنا لم أنجُ من الأمر، غير أني لم يتسنَّ لي الوقت كي أدرك ذلك.إذ ماأن يحل القمل في شعري الدبق، و يتغذى من دمي، حتى يفطس، مسموماً. هكذا،

فإن قبيلة كاملة من القمل، وُعِدَت بمكافأة مقابل النيل من رأسي. لكنها سرعان مافهمتْ، ومضتْ لتعشِّش في رؤوسٍ أقل قذارة. الفيروسات تعلم ذلك. أنا مقبرة لها. ما أن يتغلغل فيروس إلى داخلي - بالخطأ - حتى ينفق. لايجد مايتمسك به، مايزدهر به. فيجف وينفق في عزلة بائسة. أنا أخيف جميع الأمراض، حتى السرطان. لاتوجد عندي شفقة. أنا لاأستهلك شيئاً كي أحافظ على هذه الطاقة بالحيوية نفسها. فلست في الواقع سوى طاقة ولاشيء آخر. بشاعتي المادية هي غياب للروح. هذا ماقاله لوالدي، دجالٌ مسكينٌ، بعد صلاة الجمعة. أهو غيابٌ أم نسيان؟ أهو العدم؟ لأي سبب سأبذل جهداً لأحب الآخرين، الذين لن يحبوني أبداً، في جميع الأحوال؟

إن كان أحد الشبان، الذي لم يكن جميلاً ولا قبيحاً، قد رأى في شخصي، امرأةً، وأراد أن يتزوجني، وكنت آنذاك في الخامسة عشرة، وكان المسكين صادقاً، فإنه لم يعرف أين يصب مشاعره، أو أنه كان يعرف تماماً مايفعل. كان ينوي إنقاذي، متسلحاً بالقرآن! عندما فهمتُ ذلك، قلت له إني على مايرام مثلما أنا، ولاأشعر بأية حاجة للإنقاذ، ولا المساعدة إطلاقاً، وإني سوف أصل إلى ما أبغيه من كل شيء، ومن كل الناس، وإنه يمكننا أنا وهو، من وقت لآخر، أن نتبادل بعض المعلومات. ابتسم لي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يبتسم لي فيها إنسان، ولم يكن هنالك أي خبث في هذه الابتسامة. حركة بلا مقابل. ابتسمت أنا أيضاً ورأيت وجهه يُظلم. فقد عطَّلَتْ أسناني المنحرفةُ كلياً، ابتسامَتَهُ على الفور. كادت دمعةٌ أن تسيل من عيني. أوقفتُها وأنا أعض على شفتي. الدم ولا الدموع!

يقولون إن الطبيعة كانت بخيلة معي -هذا شيء مريح تماماً- (بخيلة)، كوصف أقل بكثير مما يمكن أن يقال هنا. شريرة؟ حتى ولا هذا. الطبيعة لم تصنعني. لابد أني خرجت من القمامة، ولا أشعر بأي خجل من قول ذلك . أردتُ أن أصنع من الحياة حفرةً مشتركة هائلة،

تُلقى فيها الكائنات والقاذورات. هل أصِلُ إلى ذلك؟ ينبئني القرآن بجهنم أبدية. بهذه الطريقة نستعد لها إذن، ونحطم جميع المرايا. فلا يعود لنا صور عن أنفسنا. سأسهر على تحقيق ذلك. لن أبيد العجائز. سينفقون ببطء. الآخرون، من هم بحالة جيدة، سأعرف كيف أنشر العدوى بينهم. وإن لم أتمكن، فسأعمل على تشويههم، وسنعيش بسلام في نفس البشاعة الأزلية، الجسدية والمعنوية.

أنا مخلد. لستُ أنا من يؤكد ذلك. إنها قرون منحبسة في داخلي. ومؤلِّفي أمام ناظريك. نهايةٌ. كلمة أخيرة. لو كان عندي روح، لما كنت بشعاً أبداً ولا بخيلاً مع الحياة.

20

الرجل العجوز والحب

نهض الرجل العجوز بصعوبة وحاول أن يغلق النافذة بطرف عصاه. كان ضجيج الأعمال في حي الرملة، يصم الآذان. تمنى لو أنه وجد غرفة في فندقٍ بشارع غارسيا أو دياغونال. لكن وضعه المالي التعيس ببساطة، قد حكم عليه بأن يستقر في فندق قديم، يُستعمل في أوقات معينة من النهار، كنزل مؤقت.

متدثّراً برداء بيت من الجوخ، متسخٍ قليلاً، وبالٍ قليلاً، يعاني دون رودريغو من ألم يرجع لسلسلة من المآسي. هو الأرستقراطي، رجل الثقافة، النبيه والرهيف، الرجل ذو الحساسية العالية، المحب للحياة وللحب، الديبلوماسي الذي دار العالم، رجل الحفلات الكريم ذو الذوق الجمالي، يجد نفسه اليوم متردياً في هذا الانحطاط، المادي والمعنوي، محكوماً بالعيش في الوسخ والعار، سادّاً أذنيه بالقطن، ومحاولاً إعادة قراءة دون كيشوت، كما لو أن وراء ذلك دافعٌ، هوالرغبة في ردّ القدَر، أو، الرغبة بالسخرية، بصمتٍ، من ظَرفِهِ كإنسانٍ، غشّهُ القدر، وأذله ذووهُ ونسيه الجميع.

ينظر إلى نفسه في مرآة مطفأة ولايتعرف على نفسه. يبتسم ويقول لنفسه إن السير على طول النهر سينتهي قريباً. كان يتمنى فقط أن يعرف إلى أي دركٍ ستهوي به الحياة وستكشف له

ضراوتها. لديه شعور جلي بأنه عوقب. ليس من البشر فقط، بل من الله أيضاً. هو من كان يسخر من الدين ويصفّـق لجميع الاستفزازات المعادية لرجال الدين، التي كانت تصدر عن السرياليين الأسبان. هو من كان يعلن إلحاده القوي جداً، في أوج الحكم الفرانكوي، يجد نفسه حالياً وهو يأمل بشيء ما ، إشارة ما من السماء، تعبير عن صداقة، بطاقة بريدية من أحد عشاقه القدامى، وربما صورة أمه في المنام. أمٌ تكلمه أخيراً، حتى لو كلمته بكلماتٍ خرقاء. يأمل بضوء صغير من الله، من الأنبياء أو من القديسين.

كف دون رودريغو، الذي تعرض للعقاب، والمعاملة السيئة، وسوء الفهم، والإذلال، عن طرح الأسئلة على نفسه، وكف بصورة خاصة، عن البحث عن معنى للأشياء. لم يعد لديه أوهام بخصوص الجنس البشري. يعلم أن البشرية كريهة وأنه لايجب انتظار شيء منها. الحب وحده، الحب الحقيقي، والكبير، يجعله ينسى كرهه العميق للبشر. كان يحب الجمال، وكثيراً ماتعذَّبَ في حياته، لكي يعيش مع جمالِ جسدٍ ما. حتى لو لم تكن روح الكائن المحبوب، دوماً، بالجمال نفسه. كم من مرةٍ كادَ مستقبلُهُ الديبلوماسي أن يقف بسبب تجاوزاته الغرامية وبسبب قلة تحفظه بشكل خاص. كان يظهر بصحبةِ شبانٍ استفزازيين وشديدي الصخب . كان يريد أن يظل شاباً، ألا يستاء من سخريتهم أو من مزاحهم السيء. كان يتبعهم في نزهاتهم الليلية ويقبل أن يكون مضحكاً نوعاً ما. كان يقول: «عندما تحب، فإنك لاتكون مضحكاً أبداً.»

كان يحب الشبان ولم يخفِ ذلك. لم يعلِنْه على الملأ، ولكنه لم ينْفِ قط، الإشاعات عن حياته الخاصة، عن كرمه وإنفاقه المُبالغ به، والذي كان قادراً عليه، لأنه كان يملك ثروةً كبيرة، ولم يكن يعتمد على راتبه كقنصل، في إقامة الحفلات وتنظيم الرحلات عبر العالم. عندما كان عاشقاً، ليس فقط أنه لم يكن يحسب ماينفق، بل

كان أيضاً يرتب أموره لكي يموّل أعمالاً ، يشرَع بها عشاقُهُ، وتُخفِق في معظم الأحيان. كمسرفٍ، مقبل على الحياة، كان يحب شراء اللوحات وإهداءها لأصدقائه.

التقى، أثناء أحد المزادات، بِجميل، الشاب ذي العشرين ربيعاً، ممشوق القوام، أجعد الشعر، ذي الهيئة الماكرة، والغاوي الكبير. كان هذا الشاب قد بدأ للتو، تجاربه الأولى في العلاقة مع الرجال. كان مايزال خجولاً، ولكنه بدأ يصير جسوراً. فجأةً، انتاب دون رودريغو شعور قوي جداً بأنه سيعيش قصة حب رهيبة يحوم فيها الموت. انطبع ذلك في ذهنه مثل قناعة. اضطرب، وظن أنه مصاب بالحمى. عندما اقترب من جميل، كان قد قُضي الأمر، وكان ماكان، ولم يبق أمامه إلا أن يعيش ما سيحدث. لم يتبادلا حتى الكلام. سارا جنباً إلى جنب كما لو أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل. كان دون رودريغو يشعر بقليل من الخوف، ولكنه خوف يُحرض فيه ترقباً كبيراً، شيئاً يتعذر تعريفه. تلك هي ولادة الهوى.

سافر العاشقان. تبادلا الحب باندفاع، وفقدا رشدَهما، كلٌ بدوره. قاما بمشاريع عديدة، ثم استقرا في منزل صغير بأصيلة، مقابل الأطلسي. تقاعد دون رودريغو وكرس نفسه كلياً لسعادة جميل وأسرته، التي لم تكن تتساءل كثيراً عن مصدر كل هذا المال، وماالذي يفعله ابنها مع ذلك الرجل العجوز. كانت النفقات تزداد باستمرار، ودون رودريغو يدفع دون تعليق. كان جميل يخونه من وقت لآخر، مع الفتيات. ودون رودريغو يعلم ذلك لكنه لم يكن يقول شيئاً. لـقّبه جميل بِـ «النبي». كانوا يضحكون كثيراً من هذا اللقب. ورغم كل شيء كان الديبلوماسي الأسباني العجوز سعيداً بحب هذا الشاب السوقي قليلاً، والمتمرد قليلاً. عندما يتغيب في برشلونة، لإنجاز بعض الأعمال المتعلقة بالأسرة، كان حبيبه يستقدم الفتيات إلى المنزل ويقيم حفلات القصف والعربدة. كان يحب المشروب

وتدخين الكيف. لكنّ دون رودريغو لم يكن يحب هذه العادات ويتجنب أن يوجه له اللومَ، خشية غضبه.

مرض دون رودريغو يوماً، لدى عودته من أسبانيا. لم يعرف الأطباء مرضه. نصحوه أن يستريح. كان في الواقع، قد شارك للتو في اجتماع عائلي، طالبته فيه أسرته بتقديم حساب. اتُهم بهدر ثروة العائلة، فكفوا يده عنها وأُهين من قبل أخوته وأخواته. كان شذوذه الجنسي هو القضية المركزية في التحقيق. سمع كلاماً عنصرياً، لم يكن جميل بالنسبة لهم، سوى عربي، «جديٍ»[1] يستغله. لم يكن هناك شيء يعادل كرههم للعرب، سوى نفورهم من الشاذين جنسياً. لم يوفروا شيئاً إلاألصقوه به. العار، تلميحات بالفساد وإهانات مباشرة. تألم وتركهم قائلاً لهم إنه لايحقد عليهم. في طريق العودة، توقف عند كاتب العدل الذي يعمل معه ودرس معه الإجراء الذي يسمح لجِميل ألا يقاسي بسبب هذه المعارضة، في حال موته. كان يجب منح كل شيء بشكل رسمي، وهو حي، لجِميل. تلك هي الوسيلة الوحيدة لمنع عائلة دون رودريغو أن ترث أملاكه بعد موته.

أعلمَ جميل والدته أن «النبي» تنازل له عن منزل أصيلة، وعن شقتين في أسبانيا، وسيارتين، وأسهم في البورصة وكل خزانة ثيابه. أصابه الدوار. جعلته جميع هذه الأشياء المكتسبة بهذه الفظاظة، عصبياً. وجدت أمه هذا الكرَمَ مريباً، لكنها لم ترفضه. طلبتْ رؤية سندات التمليك. لَفَّتْها بملاءة وأخفتها تحت بلاط الحمام. أخذت تكثر من دعواتها للـ «نبي» لتناول الطعام في بيتها، وكانت كل مرة تشكره على الخطوة التي قام بها. ويجيب هو، بالابتسامة ذاتها: «بعد موتي، يجب أن تكون هذه الأسرة هي المستفيدة من أملاكي وليست أسرتي، التي طالما كرهتني والتي لاتكن أي تعاطف إزاء العرب. لقد نالت عقابها، ولكنها لاتعلم ذلك

(1) جدي: bicot هو صغير العنزة. وتطلق الكلمة على العربي، على سبيل التحقير.

بعد! أنا سعيد أني قدمت لكم خدمة، وأني أسعَدْتُ جميل، هذا الشخص الرائع!...»

لم يكن يعرف أسرةَ جميل معرفة جيدة. إنهم أناس متواضعون لديهم كثير من الأطفال. تدير الأم المنزل بحزمٍ منذ وفاة زوجها الفجائية. عملت في مطعم واشتهرت بكونها عرافةً جيدة. يأتي إليها الناس من طنجة وحتى من نادور، لاستشارتها. كان دون رودريغو بالنسبة لها، سيداً عجوزاً مريضاً ولكنه غني. لم تُظهر أية مشاعر إزاءه قط. هل كانت تشك بنوع العلاقة التي تربط ابنها بهذا الغريب؟ كانت فقيرة ولم تـثـقـل كاهلها بأسئلة من هذا النوع، بل كانت ترحب به، وأصبحت الحياة مريحة منذ قدوم دون رودريغو. عرضت عليه يوماً، أن تقرأ خطوط يده. لاحظت أن خط الحياة طويل وخط الحظ ممحو من وسطه. أما بخصوص الصحة، فكانت جيدة. مع ذلك قالت إنها ترى شيئاً أسود، جِداداً، أو حادث سير. سألته عن قلبه. فأجاب: «في حالة ممتازة!» ثم ضحك الاثنان. عند ذهابه، أصيبت الأم بضيق. كاد يغمى عليها، وتمتمت أن مصيبة ستقع. ثم صلَّت وهي تطرد من يدها المفتوحة شيئاً وهمياً.

وقعت المصيبة في الصيف الذي تلا. شرب جميل ودخن كثيراً ثم غاص في البحر الذي كان هائجاً بشكل غير عادي ذلك اليوم. اختطفته الأمواج ولم يعد. بعد ثلاثة أيام، ألقى البحر بجثته على الشاطئ. كان حزن دون رودريغو عظيماً. بكى مثل طفل أياماً وليالي. حمَّلته أم جميل مسؤولية هذا الموت وأمرته أن يغادر البيت خلال أربع وعشرين ساعة. ولفتت نظره بالمناسبة إلى أنه خسر كل شيء وأنه ليس أمامه سوى التوجه للسماء وللشيطان. انصب كل غضب هذه الأم المفجوعة على الرجل المسكين الذي انتُزِعَتْ منه أملاكه وهو حي، وبمحض إرادته. هام عدة أيام مثل غريق في طرقات أصيلة. كان الأطفال يسمونه: «المسيحي صاحب الأست

الواسع»، وكان بعضهم يلقي عليه قشور برتقال، وآخرون يقدمون له بعض الخبز والزيتون.

كان القدر قاسياً قسوة غير عادية مع هذا العاشق للحياة. بعد أن أصبح وحيداً ومشوهاً من الألم، طلب مهلةً لجمع حاجياته. أعلمته الأم أنه لم يعد له حاجيات. لم يحاول معاكستها. حمل عدة حلاقته، بيجامة نومه، رداءه البيتي العتيق، وغادر البلد. حين وصل إلى برشلونة، لم يكن وارداً بالنسبة له، أن يذهب إلى أخوته وأخواته. اتصل ببعض الأصدقاء ولم يجرؤ أن يطلب منهم العون. كان يشعر بالخزي. أنقذه كاتب العدل من ورطته وأكد له حقه براتب تقاعدي كديبلوماسي. إنه يعيش الآن بهذه النقود. يعيش بشكل سيء. لم يعد يتذوق شيئاً. إنه رجل محطم ينتظر، في سرير خاوٍ، أن يأتي الموت ويختطفه.

21

متعدد الزوجات

زوجتي الأولى، أعطتني إياها عشيرتي. كنت ماأزال طفلاً حين تزوجت ابنة عشيرتي. كنت أجد جمالها طبيعياً، واضحاً، ولكنه متعذر التحديد. احتجت إلى وقت كي أكتشف أنني لم أكن عشيقها الوحيد.

زوجتي الثانية، وجدتها بمفردي، أو تقريباً، لقد قُدِّمت لي. ولكن كان يجب إغواءها، اللعب معها وإثارة اهتمامها كي أكون جديراً بها وأحتفظ بها. اجتهدت في ذلك بهمة لابأس بها.

حين بلغت الأربعين، عشت في وفاق مع هذه وتلك. زوجتاي لاتتفاهمان. هنالك مشكلة تواصل. إنهما مضطرتان للمرور عبري لكي تكلم إحداهما الأخرى، وحتى لكي تتشاجرا.

أنا أميل للثانية، لأنها غريبة عن العشيرة، وقد علموني أن أكون لبقاً ومضيافاً مع الغرباء، الغرباء بشكل خاص. ليست لباقتي سوى مظهر خارجي. أنا في الحقيقة، عنيف. أحب أن أُخضِع هذه الغريبة، ولكن علي الاعتراف بأنها في غالب الأحيان تكون المنتصرة. إنها تسيطر علي وأستسلم. أعرف: لاجدوى من أية مقاومة. الدليل: إنها هي التي تتكلم بدلاً مني وتقول الكلمات والأشياء الخاصة بي.

يحدث أن تتمرد الأخرى، وبدون علمي تستولي على السلطة، وتتسلل في الثنيات الحميمية للوجه الآخر.

إذا لم تتواصلا، تنظران إلى بعضهما وتنصبان الكمائن لبعضهما. أحب الوضع عندما تدب فيه الحركة، عندما يجري فيه تبادل سهام، وجملٍ وصور. تناول الواحدة الأخرى وكلاهما تزدرياني. تتحالفان ضدي. وأجد نفسي في نهاية المطاف دون ملاذ، معزولاً، منزوع اليد ومهزوماً. في تلك اللحظة، أستشير المعجم. إنه صديقي. هو صارم قليلاً، ولايتمتع بكثير من الدعابة. يزودني بالمعلومات ولكنه لايساعدني في نزاعاتي الزوجية. إنه مع النظام والأخلاق، مضبوط وبدون لبس. بارد ومتصلب. إنه يحبطني ويثبط عزيمتي. أنا لاأخلاقي. وهذا لايُغفر للمرء خاصةً في قاموس.

لذلك أميل إلى الصمت. أراقب الصمت من نافذتي. أنظر إليه يمر في الشارع. أوافيه؛ يحيط بي وأصغي. إنه خادع في معظم الأحيان. يطرح مشاكل يجب أن يعرفها المرء من قبل.

أصرخ. أصرخ كي أسرِّع الأحداث. في تلك اللحظة، تتدخل زوجتاي، مذعورتين، وتقترح كل منهما تهدئتي، إعطائي الحنان والحب، الرعشة والشمس.

ما أن أكتفي، حتى تتركاني لتذهبا وتعطيا نفسيهما إلى آخرين.

لهذا السبب، قررت يوماً أن يكون لي كتابة خاصة، جيدةً كانت أم سيئة، جميلة أم بشعة، بسيطة أم معقدة، تكون خاصتي، تشبهني وتغطي أشد خصوصياتي حميمية.

في هذه الأثناء ابتليت بقصة حب ثالثة. التقيت بشخص غريب وغامض؛ لقد وقعت في الوهم والخطأ. كان الوقت ليلاً، لم أر وجهه

جيداً. كان تجلياً، شبحاً، نوعاً من مهووسي التنكر في ألبسة النساء. قال لي: «هيا اذهب. اذهب إلى نسائك! أتتمكن من إروائهن على الأقل؟...» .

منذ ذلك الوقت، صار إخلاصي نموذجياً: أنتقل من الواحدة إلى الأخرى، وأعرف أني أعطي الثانية أكثر لأنها أجنبية وأنا تعلمت أن أحب الأجنبيات.

جعلتني قصص الحب هذه غنياً، لاأدفع ضرائب. عندما يأتي مراقب الضرائب كي يرى مايحدث، لايفهم الكثير. يضيع في هذا البيت ذي الطوابق والأبواب المتعددة، ويمضي وهو يقسم لي أنه سيتمكن في المرة القادمة من الإيقاع بي.

عاشق متعدد زوجاتٍ، ومخلص! هذا يثير أعصابه.

يحدث لي أن أغادر البيت الكبير. أستفيد من نوم الأولى كي أصحب الأجنبية للتنزه في طرقات المدينة. إنها لاترتدي جلابية ولا حجاباً على وجهها. تسير مانحة لي ذراعها؛ إنها عارية. ليس لأنها غير محتشمة أو قليلة التربية، بل لأنها تنجذب انجذاباً قوياً إلى أنسجة ذاكرتي القديمة، إلى الألوان المجنونة لِجذوري، لدرجة أنها تتغطى بها، أكثر فأكثر كلما تقدمنا في متاهة المدينة ومتاهة الطفولة العربية.

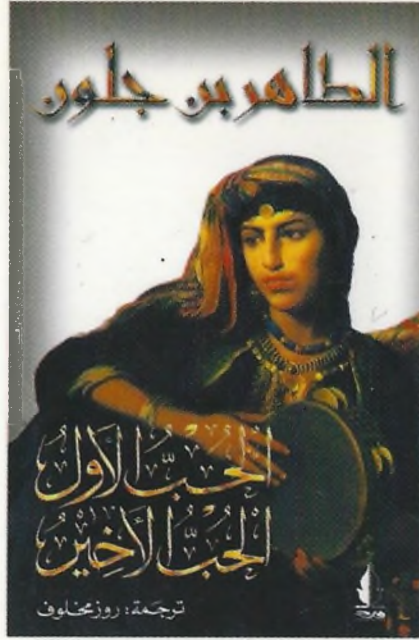
زوجتي الأولى لاتسمح بنزع أثوابها عنها بسهولة. إنها فخورة وخرساء في كبريائها. حين أحاول اصطحابها إلى عشاء راقص أو حفلة مفاجئة، تثور وترفض أن تلحق بي. تذكّرني، ليس دون عنف، بأصولها النبيلة والمقدسة المذكورة في الكتاب المقدس، القرآن.

هنا يجب أن يكون المرء جاداً! المزاح صعب! القرآن، إنه معجزة، لايمكن تقليده أو المساس به. إنه يفزعني. يسحقني بجمال شعره الذي لايمكن إدراكه.

عند ذلك أعود إلى الأخرى؛ وأطلق لمكبوتاتي العنان. تستقبلني بذراعين مفتوحتين. تعطيني شفتيها، تغطيني بشعرها، ونمارس الحب في الضوء، تصاحبنا موسيقا فيفالدي أو باخ.

إنها تحبني. تساعدني على العيش. لدينا نزاعاتنا. ولكن «الموت وحده هو الذي يكون مسطحاً»!

الفهرس



في بلدي، هناك شيء ما قد تحطَّمَ في العلاقة بين المرأة والرجل. غاب الانسجام وصار الحب يعكس عنفاً كبيراً. وكثيراً مايُخلط بينه وبين الجنس. ففي حين تقول المرأة إنه لايوجد جنس دون حب، يجيب الرجل ليس بالضرورة.

يحكي هذا الكتاب عن غياب التوازن وغياب التفاهم بين الرجل العربي والمرأة العربية. القصص الموجودة فيه لاتتحدث إلا عن الحب. أي: العزلة، السر وعدم الفهم. ثم سرعان ماتتحول هذه الحاجة إلى بحث عن الذات، لأنك، كي تحب الآخر، كي تعطي، يجب أن تحب نفسك قليلاً. ليس الأمر بسيطاً في بلدٍ تساعد فيه التقاليدُ الرجلَ، على ترسيخ سلطته الصغيرة، في الوقت الذي لايمكن أن يتم شيء دون المرأة.

الطاهر بن جلون